الحضَارات القديمة

مصرُ والشـــــــرق

تأليف

رمسيس رياض مفتاح

جورج صيلب داود

الكتاب: الحضارات القديمة.. مصر والشرق.

الكاتب: رمسيس رياض مفتاح، جورج صيلب داود

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

مفتاح ، رمسيس رياض/ داود ، جورج صيلب

الحضارات القديمة.. مصر والشرق./ رمسيس رياض مفتاح، جورج صيلب داود

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٣ ٠ – ٦٨١٨ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٧٠١٤ / ٢٠٢٠

الحضارات القديمة

مصر والشرق



تمهيد

نشأت منذ أقدم العصور في الحوض الشرقي للبحر المتوسط في الهلال الخصيب وغرب آسيا ومصر حضارات عظيمة تدين لها مدينة أوربا وأمريكا بل العالم أجمع بالشيء الكثير، فهناك نشأت الزراعة والتجارة والصناعة والكتابة والهندسة وفن النحت والبناء والأدب والموسيقى والفلك والتقويم، وعرفت الخيل والمركبات والنقود والورق والكتب وعقيدة التوحيد وأدوات التسلية والخمر.

العوامل المشتركة في قيام هذه الحضارات:

عاش الانسان في العصر الحجري القديم فوق الهضاب التي كان يكسوها العشب وتكثر بها الأشجار والحيوان معيشة بدائية كالحيوان الضاري، ولم تلبث الظروف في المناخية أن تغيرت وإنتهى العصر المطير وتبدلت طريقة معيشة الإنسان، وكان أول شرط لازم للإستقرار في العصر الحجري الحديث هو توفر المياه على مدار السنة، فلجأ إلى أودية الأنهار حيث يتوفر له ولحيوانه الشبه مستأنس مياه الأنهار وخيرات التربة الخصيبة ومواد البناء كالأحجار في مصر والطمي في كل من مصر والجزيرة. علاوة على هذا لقد كان المناخ أكثر صلاحية هنا منه في أي من بقاع الأرض لممارسة الإنسان لنشاطه وبناء حضارته، دون إنشغال في مكافحة عناصر الطبيعة – ولم تكن الظروف أكثر ملاءمة منها في مصر

وبلاد ما بين النهرين كما أن مصر وبلاد الشرق القديم – بحكم ظروفها الجغرافية –كانت بمنأى عن العوامل الهادمة للحضارة، ومنها إغارات القبائل المتبربرة الرعوية والعزلة التامة عن حضارات البلاد المجاورة.

فقد تمتعت شعوب وادي النيل والهلال الخصيب خلال فترة من الزمن بسلام لم يعكر صفوه هجمات القبائل الرحل التي تعيش على الصيد والنهب، مما مكن هذه الشعوب من تدعيم حضارتها حتى تأصلت جذورها.

وقد اختلف طول هذه الفترة أو قصرها تبعًا لضغط وتوالي الهجرات، وتبعًا لمناعة وموقع كل بلد من بلاد الشرق القديم.

وكانت الظروف الجغرافية في مصلحة مصر أكثر منها في بلاد الشرق القديم، الذي تأثر كثيرًا بهجرات الشعوب السامية والآرية.

أما مصر فقد كانت بحكم موقعها، ووجود الصحاري على جانبيها والبحر في شمالها، وضيق الوادي في الجنوب، أسعد حظًا من بلاد ما بين النهرين وإن لم تسلم تمامًا من الغزو الخارجي.

على أن هذه الظروف لم نجعل مواطن هذه الحضارات في عزلة تامة عن العالم الخارجي. تلك العزلة التي تؤدي إلى جفاف وفتور الحضارة كما يلاحظ في حضارات الجهات الجبلية. ووجد في مصر وبلاد ما بين النهرين وكثير من جهات الحوض الشرقي للبحر المتوسط ما يدل على وجود صلة منذ أقدم العصور بينها وبين بعضها الآخر.

مصادر دراسة الحضارة القديمة:

١- **الآثار**: أهم المصادر في تعرف أخبار وأحوال وطرق معيشة الشعوب القديمة في دراسة مخلفات الشعوب القديمة من معادن وأدوات وفنون، فمنها نستنتج تاريخهم وعقائدهم الدينية وعاداتهم ومقدار تقدمهم في نواحي الحضارة.

ويلاحظ أن معظم الآثار المصرية القديمة عثر عليها في معابد ومقابر لإندثار المساكن، فهى آثار دينية وجنازية، وإن كان هذا لا يقلل من قيمتها، لأن المصرى أحتفظ في المقابر بأغلب ما كان يستخدمه في حياته الأولى أو بنماذج لها. أما في بلاد ما بين النهرين فقد عثر على آثار سكنية إلى جانب الآثار الدينية.

٢ - **النقوش القديمة**: حفظ لنا كثير من النصوص الدينية في مصر القديمة وأهمها نصوص الأهرام التي حوت ما سمح لبعض العلماء بإستنتاج الكثير من المعتقدات الدينية والجنازية الهامة، وبعض الأحداث التاريخية التي ترددت بين ثناياها، كما حفظ لنا بعض أوراق البردي التي يشتمل بعضها على كتابات أدبية وتاريخية بخلاف الدينية.

كما أن المصريين عمدوا إلى تسجيل الحوادث الهامة على لوحات صغيرة، كما سجل الملوك بفخر إنتصاراتهم وأعمالهم على جدران المعابد. وهناك أيضًا قوائم بأسماء الملوك (قائمة أبيدوس والكرنك) كان الغرض منها تقديم القربان للملوك المنقوشة أسماؤهم عليها، ومنها

نستنتج ترتيب الملوك.

وقد خلفت لنا حضارة ما بين النهرين لوحات طينية مكتوب عليها بسن آلة حادة على طين طري، ثم يجفف، وهي تسجل وثائق وعقود وأحكام فكانت أبقي من الورق.

المؤلفات التاريخية القديمة: أهمها ما كتبه كتاب الإغريق والرومان الذين أجتذبتهم حضارات الشرق القديم لزيارته والبحث عن مدى صلته بحضارتهم منذ القرن السادس قبل الميلاد.

ومن أمثال هؤلاء المؤرخين هيرودروت أبو التاريخ، الذي جاب الكثير من أقطار العالم في القرن الخامس عشر، وقسم كتابه إلى تسع أجزاء، الجزء الثاني منها عن مصر، وديودور الصقلي الذي عاش في القرن الأول وكتب في تاريخ مصر وفارس والرومان واليونان وميديا وسترابو الذي توفي سنة ٥٢٠ ق.م. وكتب مجلدًا ضخمًا عن عادات وعقائد وتاريخ وجغرافية البلاد التي زارها: وينقسم المجلد إلى ١٧ كتاب الجزء الأخير منه كتب عن مصر وإثيوبيا (النوبة) وقرطاجة وغيرها من بلاد إفريقيا:

وقد سجل مانيثون تاريخ مصر في ثلاثة كتب باللغة الأغريقية وهو كاهن مصري عاش في عهد بطليموس الثاني في القرن الثاني ق.م وقد أعتمد في كتابه على مصادر مصرية قديمة وقسم ملوك مصر إلى ٣٠ أسرة.

ومن الممكن الإعتماد على كتابات هؤلاء المؤرخين فيما سجلوه من ملاحظاتهم الشخصية وما ذكروه عن تاريخ مصر في عصرها المتأخر القريب من عهدهم. أما ما سمعوه من المواطنين عن ماضيهم البعيد فيشوبه الكثير من الخلط والمغالاة، مثال ذلك جعل عصر بناة الأهرام بعد الدولة الحديثة.

٤ – فك رموز الكتابات القديمة:

(ا) الكتابة المصرية القديمة: ترك لنا المصريون القدماء الكثير من النقوش القديمة على الأحجار والبردي، وأصبحت هذه النقوش غير مفهومة منذ القرن الرابع الميلادي حتى القرن التاسع عشرة وتلك الكتابة كانت مثل الكتابة الكلدانية والصينية، والمكسيكية تستعمل صورًا تمثل كائنات حية ونبات وجماد، وهي التي أطلق عليها اليونانيون الهيروغليفية ومعناها الرموز المقدسة، ونشأ من هذه الكتابة شكل سريع سهل إستخدم في الكتابات العادية، وسماه اليونانيون الكتابة الهيراطيقية

(المقدسة)، وأقتصر إستخدام الهيروغيلفية على الكتابة على الآثار؛ أما الهيراطيقية فعم إستخدامها في الوثائق العامة والمعاملات التجارية والمراسلات الخاصة. ونشأ منها نوع آخر من الكتابة أكثر إختصارًا سمي بالكتابة الديموطيقية (الشعبية).

وقد عثر جنود بونابرت في رشيد على حجر منقوش عليه نص واحد بالكتابتين الهيروغليفية والديموطيقية باللغة اليونانية من عهد بطليموس

أبيفانس، وأخذ العالم الفرنسي شمبليون في دراسته وفك رموزه وبدأ ببطليموس وكليوباترة، وعرف أن الكتابة المصرية تتكون من حروف هجائية ومقاطع صوتية وعلامات تصريرية في آن واحد؛ وتعرف كيف يقرأ النصوص الهيروغليفية، ولكن بقي عليه أن يعرف ترجمتها، وتوصل إلى ذلك بفضل القبطية التي بدأ المصريون يستعملونها، منذ سيطر الإغريق على البلاد. وهي عبارة عن لغتهم القديمة ولكنها مكتوبة بحروف يونانية، وما زالت القبطية معروفة لدى القلة من المسيحيين المصريين، إذ ترجم إليها الإنجيل والتوراة من اليونانية والعبرية حين دخلت الديانة المسيحية مصر، ولها قواميس وكتب في القواعد، ووجد فيها شمبليون المعاني التي يريدها.

(ب) **الكتابة المسمارية**: أستخدم السومريون الذين إستقروا في شنعار (جنوب بلاد ما بين النهرين) منذ أقدم العصور الكتابة المسمارية.

وعندما أستقرت القبائل السامية في جهات الهلال الخصيب، وكانوا لا يعرفون الكتابة، أستخدموا كتابة السومريين. وكانوا يكتبونها على ألواح من الطين بأداة حادة تترك أثرًا مثلثًا ولذلك سميت بالمسمارية. وهذه الكتابة مثل الكتابة الهيروغليفية أستخدم الصور البدائية للحيوان والجماد، ولكن أداة الكتابة جعلت هذه الصور تتخذ أشكالًا جامدة يصعب التعرف على أصلها. وقد أستخدمت الكتابة المسمارية كل الشعوب السامية الأسيوية وأستخدمها ملوك مصر في عهد الإمبراطورية في مراسلاتهم مع دول آسيا، كذلك أستخدمها ملوك فارس الآريون. وقد

عثر على عدة آلاف من الألواح المكتوبة بالمسمارية، وكان الطريق الوحيد لفك رموزها هو العثور على (حجر رشيد بابل) يحوي نصًا واحدًا بلغتين إحداهما معروفة.

وقد عثر على مثل هذا النص، وقد كتبه دارا الأول بالفارسية القديمة والآشورية والبابلية. وقد لعبت اللغة الفارسية الدور الذي لعبته القبطية في تفهم معنى النص، إذ لا تزال إحدى لهجاتها (لغة الزند) مستعملة في الوقت الحاضر ويرجع الفضل في فك رموز نص دارا الأول للعالم هنري رولنسن.

الباب الأول

الحضارة المصرية القديمة

أولًا : العوامل الجغرافية التي ساعدت على قيامها

١- **النيل**: «مصر هبة النيل». وصف هيرودوت مصر بتلك العبارة التي تبين أن مصر تدين للنيل بوجودها. فلولا النيل لكانت مصر إمتدادًا للصحراء الكبرى في شمال إفريقيا. ذلك النهر الذي يعد من أطول أنهار العالم، تزوده منابعه الإستوائية بالمورد الدائم للمياه، كما تزوده منابع الحبشة بمياه الفيضان في موسم الأمطار الحبشية التي تجلب معها الغرين، والنيل طريق مائي سهل رخيص يربط بين المدن والقرى المتباعدة الواقعة على إمتداد مجراه. وكانت السفن تستخدم الشراع في إنتقالها من الشمال للجنوب، تدفعها الرياح الشمالية، والمجاديف في إنتقالها من الجنوب للشمال يدفعها تيار النيل، وتحمل المنتجات والحاصلات.

وقد وردت عبارات عميقة المعنى في أقدم الأناشيد التي صيغت لعبادة النيل «سلام عليك أيها النيل الذي يحيى بمائه(1) أرض مصر وما عليها من مخلوقات ونباتات. سلام عليك يا رب الخيرات، ويا من يروي الصحراء بنداه. إن أبطات أضطربت القلوب وهلكت الأرواح، وإن أسرعت طابت النفوس وتفتحت الزهور. إن ماءك يشبه خمر الكروم».

---

(1) يطلق عليه ماء الحياة.

٢- **موقع مصر**: كان موقع مصر الممتاز بين ثلاث قارات كبرى هي أوربا وإفريقيا وآسيا، سببًا في جعلها حلقة أتصال بين أجزاء العالم المعروف في ذلك الوقت، كما جعلها على أتصال بمواطن الحضارات القديمة المعاصرة، فتأثرت بها، وأثرت فيها، وقد وجد في آثار مصر في عصر ما قبل الأسرات ما يدل على هذه الصلة، ومثال ذلك:

إستخدام المشكاوات[٢] في العمارة الزخرفية من اللبن، ويمكن تتبع أصلها في حضارة بلاد ما بين النهرين. كذلك وجدت في نقوش تلك الحقبة من تاريخ مصر القديمة ما يمثل رجلًا يصارع حيوانين متضامنين، وما يمثل حيوانات خرافية ذات رقاب ملفوفة، وما يمثل مراكب عليها طابع بلاد ما بين النهرين، كل هذه المناظر وجدت في حضارة بلاد ما بين النهرين وأستعيرت في نقوش عصر ما قبل الأسرات في مصر. ويضاف إلى ذلك ما وجد في مقابر ثلث الفترة من أحجار كريمة مواطنها الأصلي فارس.

٣ – **مناعة حدود مصر**: بينا فيها سبق أن الصحاري المحيطة بوادي النيل وضيق الوادي في الجنوب، ووجود البحر المتوسط في الشمال، جعل حدود مصر أكثر مناعة من حدود جيرانها. فلم يخشى المصريون خطرًا داهمًا ونعموا بالطمأنينة، وتفرغوا لأعمالهم وعقائدهم مددًا طويلة لم يتخللها غزو أجنبي يقضي على حضارتهم، ولكن مصر لم تظل بمنأى

---

(٢) المشكارات هي الداخلات والخارجات وتلاحظ في بناء أسوار وواجهات القصور والمصاطب في مصر ما قبل الأسرات وأوائل الأسرات.

تام عن أطماع الشعوب المجاورة، فغزاها الهكسوس والليبيون والآشوريون والفرس، ولكن بعد أن أستقر الطابع المصري وتأصلت جذور الحضارة المصرية بحيث أحتفظت مصر بشخصيتها، وهضمت تلك العناصر فلم يؤثر فيها الأجانب بقدر ما تأثروا، وتمصروا في النهاية.

٤- **أرض مصر**: أطلق المصريون على بلادهم أسم كمت (الأرض السوداء)، متأثرين في ذلك بلون الشريط الأسمر الممتد على جانبي النهر، والذي تتجدد خصوبته سنويًا بما تحمله مياه النهر من غرين، وفي هذا الجزء تتركز الحياة وتقوم المدن والقرى.

أما سائر الأراضي الصحراوية فقد سماها المصريون دشرت (الأرض الحمراء)، وتحوي أرض مصر ثروة عظيمة من الأحجار الصلبة والملونة، مثل الحجر الجيري والرملي والجرانيت والديوريت والألباستر، أستغلها المصريون في إقامة مبانيهم الضخمة من معابد وأهرامات ومقابر وتماثيل. وبها ثروة معدنية عظيمة من النحاس في شبه جزيرة سينا، والذهب في النوبة والصحراء الشرقية، أستخدموها في صناعة الأدوات، والحلى فأكسبتهم ثروة وشهرة.

٥- **مناخ مصر**: يمتاز مناخ مصر بإعتداله وإستقراره، فالشمس مشرقة والحرارة معتدلة والمطر قليل، فلم يشغل سكان الوادي بمكافحة عوامل الطبيعة، فلا أعاصير ولا رياح ولا جليد ولا حرارة لافحة، مما ساعد على قيام حياة زراعية غنية، وبث إعتدال المناخ في السكان النشاط، فنبغوا في مختلف الميادين، كما أنه حافظ على آثارهم بجفافه.

٦- **إمتداد الوادي**: ساعد على سهولة المواصلات، بالإضافة إلى نهر النيل، إنبساط الوادي وإمتداده، فلا تعترضه مرتفعات أو غابات، مما ساعد على توحيد أجزاء وادي النيل وإزالة حدة الفروق بينها.

ثانيا - الحضارة المصرية في عصر ما قبل التاريخ

عصر ما قبل التاريخ هو الفترة التي تمتد ما بين ظهور الإنسان في وادي النيل وبين الأسرة الأولى (حوالي **٣٢٠٠** ق، م) ومن المستحيل تحديد تواريخ أقسامه إلا من قبيل الترجيح.

تغيير الأحوال الجغرافية وأثره في تطور الحياة:

عصر الأمطار، بينما كان الجليد يكسو الأجزاء الوسطى والشمالية من أوربا، كان يسود شمال إفريقيا جو حار ورطب يشبه المناخ الإستوائي، فكانت الصحاري التي تحيط الآن بوادي النيل تكسوها الغابات الكثيفة عرينًا للحيونات وموطنًا للإنسان.

عصر الجفاف، وبمضي الزمن تلطف الجو فأصبح مداريًا، ثم أستقر على ما هو عليه الآن، وتتبع ذلك تناقص المطر تدريجيًا وتحول الهضاب رويدًا رويدًا إلى صحاري.

إلتجاء الناس إلى وادي النيل: في عصر الأمطار كان النيل لم يستقر في مجراه، يصب قرب القاهرة في خليج عميق وكانت له نهيرات كثيرة، ولما حل عصر الجفاف صادف ذلك إنكماش النهر تدريجيًا عن الوادي

الذي كان مغمورًا بالمياه ليستقر في مجراه الذي كونه لنفسه على ما هو عليه الآن وتكونت الدلتا في مصب النهر القديم ولكنها كانت لإنخفاضها مؤلفة من مستنقعات مزدحمة بالبردي، وأخذت جميع الكائنات الحية المبعثرة على جميع سطح القارة تتجمع تدريجيًا في مناطق الغابات الموجودة حول المستنقعات التي تركها النهر أثناء إنسحابه؛ وحول مجاري المياه، وبذلك نزل الإنسان للوادي بعد أن أنعدمت الحياة النباتية بإنعدام الأمطار على الهضبة.

حياة الصيد وإلتقاط الثمار:

أعتمد الإنسان في معيشته على الهضبة على صيد الحيوان فأكل لحمه؛ وأتخذ من جلده لباسًا له، ومن عظامه بعض الأدوات، كما عاش على جمع الثمار، وكانت معيشته هذه تقتضي دوام التنقل بحثًا عن الحيوان والثمار، فكان في ذلك أقرب إلى الحيوان الضاري.

إتخاذ الأدوات والأسلحة من الحجارة وتطورها:

أتخذ الإنسان أدواته وأسلحته من الظران في حياته على الهضبة، وخلال فترة من الزمن عند نزوله إلى الوادي. ولما كنا نستقي معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ مما خلفه الإنسان من أدوات لعدم وجود مخلفات مكتوبة فقد قسم العلماء هذه الفترة الطوية إلى أقسام حسب تطور وتقدم هذه الأدوات. وهذه الأقسام هي:

١- العصر الحجري القديم (باليوليتي) أو عصر الحجر المنحوت

نحتًا بدائيًا، ويصعب تحديد تاريخ بدايته.

٢- العصر الحجري الحديث (نيوليتي) أو عصر الحجر المصقول بعد النحت، ويبدأ حوالي ١٠٠٠٠ ق. م.

٣ - عصر المعادن (إنيوليتي) أو عصر إستعمال النحاس مع الحجر في صناعة الآلات ويبدأ حوالي ٦٠٠٠ ق. م.

ويلاحظ أن الأثر الوحيد الدال على وجود إنسان العصر الحجري القديم الذي عاش فوق الهضبة، هو الظران المنحوت الذي عثر عليه على سطح الصحراء الحالية ومشارف الواحات وسطوح النيل. ومنه قطع مخروطية الشكل ضخمة سنها مدبب، تعتبر كماشط أو بلط. ومن شظايا الصخور صنع أنصالًا رقيقة منها ما هو مسنن كالمبرد.

وعندما نزل الإنسان للوادي في العصر الحجري الحديث، وأعتمد في حياته على الزراعة وبعض الصيد، نهضت الصناعة، وعثر له على أدوات أرقى من أطراف الحراب وسنان السهام المهذبة. والأداة الهامة في ذلك العصر هي الفأس المصقولة القاطعة من أحد طرفيها، وأستعملت العظام كذلك في عمل أسنة الخطاطيف والإبر لشغلو الجلود (أنظر شكل ١).

إستئناس الحيوان: في العصر الحجري الحديث عندما أصبحت مناطق الصيد محدودة لإختفاء النبات والأشجار من الهضبة، إهتم الإنسان بإستئناس الحيوان لتكوين إحتياطي من اللحم في متناوله في أي

وقت، ويدلنا على ذلك العثور على عظام لحيوانات مستأنسة، ومن الحيوانات المعروفة لإنسان ذلك العصر الكلب السلوقي والعنزة والخروف والحمار. كما إستأنسوا الخنازير في الدلتا قبل الصعيد. أما الحيوانات المفترسة التي كانت تجوب الهضبة في عصر ما قبل التاريخ فمنها الفيل والدب والسبع وحمار الوحش في الغابات، وفرس البحر والطيور والزواحف المختلفة في المستنقعات والأنهار.

الزراعة: إختلفت الظروف المناخية في العصر الحجري الحديث، وإختلفت معها طريقة معيشته الإنسان، فتحول من جمع الطعام إلى إنتاجه ودفعه هذا إلى تعلم الزراعة ليوفر لنفسه القوت الضروري، وبني الشون ليحفظ فيها محصوله من الحبوب الغذائية وأهمها الشعير والقمح.

الإستقرار: لجأ إنسان العصر الحجري القديم في أوربا إلى سكنى الكهوف والمغارات، وقد وجدت فيها بعض الرسومات وآثار للحيوانات، على أنه لم يعثر على مثل هذه الكهوف في مصر ولا على أية بقايا بشرية تنتمي لذلك العصر، وقد يرجع ذلك إلى أن إعتدال الجو لم يدعو إنسان مصر في تلك الفترة إلى الإلتجاء إلى الكهوف مثل إنسان أوربا حيث ساد عصر الجليد. وعندما هبط الإنسان إلى الوادي في العصر الحجري الحديث، دعت ضرورة التعاون في حياة الزراعة إلى الإستقرار، وتكوين القرى والمدن بجوار أرضه، فبني الأكواخ، وكانت بيضاوية أو مستديرة، من المواد الخفيفة النباتية، وتشبه كثيرا الأكواخ التي يبنيها

الفلاحون في وقتنا الحاضر زمن الحصاد، وقد وجدت فيها مخلفات من مواقد وأواني، وعثر على طراز آخر من المساكن بيضي الشكل مصنوع من الطين الطري (الجواليص). وقد دعى صغر حجمها ووجود إناء مثقوب وسط أرضيتها لتصريف مياه المطر، وعدم العثور على مخلفات فيها، إلى الإعتقاد بأنها كانت ملاجئ مؤقتة للحماية من العواصف والبرد والمطر في فصل الشتاء. وقد كشف عن آثار العصر الحجري الحديث في الصحاري قرب القاهرة في مرمدة بني سلامه غرب الدلتا، وتاسا بالصعيد.

الأواني الفخارية: صنع إنسان العصر الحجري الحديث الفخار ليستفيد منه في خزن الطعام والشراب، فصنع منه الجرار والأطباق والأكواب، وكان لبعضها أزرار أو ثقوب تعلق منها. وكان الفخار يصنع باليد من الطمي ثم يحرق بأن يقلب الإناء على موقد مشتعل. ولم تعرف عجلة الفخراني إلا في عهد الأسرات.

وكان فخار الدلتا أحمر أو أسود وكثيرًا ما كان مصقولًا. وأقتصر وجود الأواني الحمراء ذات الحافة السوداء، والفخار الأسود المزخرف، بمادة بيضاء زخرفة هندسية على الصعيد.

زراعة الكتان ونسج أليافه: أستخدم إنسان العصر الحجري القديم جلد الحيوان لملبسه. وعندما نزل إلى الوادي في العصر الحجري الحديث وأحترف الزراعة، زرع الكتان ونسجه بمنسج بدائي وصنع منه ملابسه، وكانت خشنة.

المقابر: لم يعثر على أي بقايا بشرية لإنسان العصر الحجري القديم كما تقدم. ولما عاش الإنسان في وادي النيل، أقام مقابره على حافة الهضبة بعيدًا عن النيل ومخاطره (لذا فهي أحسن حفظًا من القرى) وذلك بإستثناء الحال في مرمدة بني سلامة، حيث كانت المدافن على مقربة من الأكواخ.

وكانت المدافن حفرة بيضاوية مثل المساكن، ويدفن الميت في وضع القرفصاء، راقدًا على جنبه، والوجه شاخص إلى المنازل. ولعل الغرض من ذلك رغبته في الإشراف على أهل بيته. وقد يوضع الجسم في حصيرة، أو يلف في جلد، وتنثر بعض حبوب من القمح في يد الميت. وتحتوي بعض المقابر على أواني فخارية وصلابة للمساحيق، وأدوات من الظران. وتدل كومة من الرديم موضوعة فوق المقبرة على مكانها.

بزوغ عصر المعادن: بدأ هذا العصر عندما أستعمل النحاس عمليًا في صناعة الأدوات ونافس إستعمال الظران. ومنه صنعت الأدوات مثل المقصات والأزاميل والخناجر والخطاطيف والبلط ذات الحدين، وبالرغم من أن النحاس أستعمل بكثرة بدلًا من الظران، فقد أستمر إستخدام الظران أيضًا في صناعة أسنة السهام وأسنة المناجل الخشبية، وذلك لمحافظة المصري على تقاليده القديمة.

وفي هذا العصر تقدمت صناعة النسيج والتجارة، وظهرت الأواني المصنوعة من الحجر الصلب، ولكنها إنتشرت في عهد الأسرة الأولى، وكانت تعد من الأثاث النادر الثمين. أما الفخار فأستخدم كمواعين

منزلية، وأتخذ حجومًا وأشكالًا مختلفة، وظهرت عليه أول صور للإنسان والطير والحيوان، وخطوط تمثل المياه، وسفن مجهزة بمجاديف عليها كابينات، وشارات المقاطعة أو الميناء الذي تنتمي له (أنظر شكل ١). ووجود فخار عليه شارات الدلتا في جهات بالصعيد، دليل على رابطة قديمة بين الدلتا والصعيد.

أما مساكن هذا العصر، فقد أستمر إستخدام المساكن البيضاوية أو المستديرة المصنوعة من النباتات المجدولة والأخشاب والطين المعجون، ولكن طرأ عليها تقدم كبير في توفير وسائل الراحة، فقد وجد فيها أحيانًا مواقد وسلال لحفظ الطعام، وحصير للنوم، وأحيانًا أسرة خشبية عليها وسادات من القماش أو الجلد المحشو بالقش.

وقد أتخذ المسكن شكلًا مستطيلًا قبل عهد الأسرات، وقد يرجع ذلك إلى إستخدام قوالب اللبن. في البناء وعثر على آثار هذا العصر في المعادي وحلوان والبداري، وأتخذت المقابر شكلًا مستطيلًا كالمساكن، إذ أستعملت فيها جدران من اللبن، وأستمر دفن الميت على وضع القرفصاء، وأقيم سلم للنزول للمقبرة وحجرات جانبيه لحفظ الطعام والأدوات، وظهرت محاولات لدفن الميت في تابوت، بدلًا من لف الجثة في الحصير والجلد، وقد كان التابوت من الفخار أو الخشب غالبًا.

الديانة: لا تعرف الكثير عن ديانة عصر ما قبل التاريخ، لعدم وجود آثار مكتوبة إلا من بداية عهد الأسرات ويمكننا أن نجد في عادة حفظ الأغذية والأدوات ولوازم الزينة مع الميت، أول دليل على الإعتقاد في

حياة ثانية بعد الموت، تلك العقيدة التي أستمرت حتى نهاية الحضارة الفرعونية.

كذلك دفن بعض الحيوانات بإحترام في أكفان من الكتان والحصير مثل أبن آوي والثور والكبش والغزال، يوحي ببداية عبادة الحيوانات المقدسة المعروفة في العصور التاريخية.

كما وجدت على الفخار، رسوم لتعاويذ ورموز، أتخذ بعضها فيما بعد رموزًا لبعض الآلهة.

وهناك من الرموز ما يمثل المعبد البدائي من العرائش المجدولة ومحاط بسور على مدخله علمان مقدسان، وفي الفناء رمز الإله.

ثالثا - الحضارة في عصر الإتحاد (٣٣٦٠ ق.م)

تكوين مملكتي الشمال والجنوب: عندما نزل المصري القديم إلى الوادي بعد تغير الظروف المناخية، وعاش معيشة الزراعة، أدي به ذلك إلى الإستقرار والتعاون لردم المستنقعات والأحراش لإستصلاح أراضي جديدة ثم دعت زيادة السكان إلى المزيد من النشاط التعاوني لشق القنوات وإيصال المياه إلى الداخل، فتداعت الوحدات القائمة على صلة الدم إلى وحدات أكبر، أدى إلى قيامها مصالح إجتماعية وإقتصادية مشتركة. وهكذا تحول المجتمع الصغير الذي وحدته القرية، إلى مجتمع أكبر يتمثل في الإقليم الذي يضم عدة قرى، ثم أندمجت الأقاليم في مقاطعات كبيرة، ذات حكومات منظمة، وكان الأساس لهذه المنظمات

الإجتماعية جميعًا زراعيًا بحتًا. ولعل مما يؤيد ذلك تسمية حاكم المقاطعة فيما بعد المشرف على «حفر القنوات»، وكذا تصوير الملك العقرب، أحد ملوك عصر ما قبل التوحيد، وهو يحفر قناة بالمعزق وسط تهليل شعبه.

وهكذا تكونت مجموعة من المقاطعات في الوجهين القبلي والبحري، ظلت بعد التوحيد كخلايا إدارية تتمتع بشيء من الإستقلال الذاتي، فلكل عاصمتها وآلهتها.

ولم تلبث الحروب والمصاهرات أن أدت لتجمع هذه المقاطعات وتكوين ممالك.

الإتحاد الأول: وقد أتفق معظم العلماء، بعد إستقراء نصوص الأهرام على أنه قد ظهرت في أقدم العصور مملكتان في الدلتا أحداهما في شرقها، والأخرى في غربها، إتحدتا في النهاية وكونتا مملكة واحدة كان آلهها الخاص أوزيريس وملكها أبنه حورس. ثم حدث أن تغلبت مملكة الشمال على ملكة الصعيد، التي كان آلهها الحامي ست. وكانت عاصمة هذا الإتحاد الأول مدينة أون (عين شمس). ومما يدل على ذلك أن عبادة حورس إله الدلتا ظهرت في الجنوب، ويلاحظ أيضًا أن فخار الصعيد ظهرت عليه رسوم تمثل مراكب وطيور مائية، وهي مناظر تتفق مع بيئة الدلتا أكثر من بيئه الصعيد، كما وجدت عليه رسوم أعلام بعض مقاطعات الوجه البحري. ويعزو العلماء إنتصار الدلتا على الصعيد إلى تقدمها، لخصوبتها وكثرة خيراتها وإتساعها، وصلتها بالبلاد المجاورة،

وأستمرت هذه الوحدة قائمة أمدًا لا تعمل مداه، ثم حدث أن تفككت الوحدة إلى مملكتي الشمال والجنوب.

الإتحاد الثاني: أتفقت القوائم الملكية ومانيتون، على أن مينا هو أول ملك قام بتوحيد مملكتي الشمال والجنوب تحت زعامة الجنوب. أما الآثار فلم يرد بها أي ذكر لملك بإسم مينا، وأول إشارة في الآثار لإتمام التوحيد، هي مناظر لوحة نعرمر (شكل ٢) التي تمثل بطريقة رمزية، إنتصار الجنوب بزعامة نعرمر على الشمال، وقد حاول البعض إعتبار مينا ونعرمر شخصية واحدة. ويبدو أن عمل نعرمر كان إتمامًا لمحاولات سابقة قام بها ملوك الجنوب لتوحيد القطرين، إذ عثر على رسوم على رأس دبوس لملك يعرف بالعقرب، تمثل إنتصاره على بعض مقاطعات الشمال.

أما الأساطير الدينية، فتروي أن رع حكم مصر بادئ الأمر ثم تلاه عدد من الآلهة، ثم أتباع حورس، ثم مينا.

وما يزيد قيام هذا الإتحاد الأول، أن كلا من المملكتين أتخذت تقاليد متماثلة عقب إنفصالهما. فكان لمملكة الشمال عاصمة هي «ب» حيث يعبد حورس، تقابلها بوتو (أبطو مركز دسوق) على ضفة النهر الأخرى وفيها تعبد الأفعى وادجيت، ويلبس ملكها التاج الأحمر، وكان نبات البردي رمزًا لها.

أما مملكة الجنوب، فكانت عاصمتها نخن حيث يعبد الإله حورس،

يقابلها على الضفة الشرقية نخب (الكاب)، وفيها تعبد الرخمة نخبيث، وكان ملكها يلبس تاجًا أبيضًا، ويرمز لها بنبات اللوتس.

ولقد روعيته هذه التقاليد طوال التاريخ المصري، فكان ملك مصر يسمى سيد الأرضين، ويلبس تاجًا مزدوجًا، وكانت الدلتا تنسلخ عن الإتحاد كلما ضعفت السلطة المركزية.

تطور الحضارة: الحضارة الطينية نسبة إلى طينة؛ ومنها ملوك الأسرتين الأولى والثانية، وهي همزة الوصول بين حضارة عصر ما قبل التاريخ البدائية وحضارة الأسرة الثالثة التي أكتمل فيها الطابع المصري، ويرى بعض المؤرخين أنه كان لحضارة ما بين النهرين تأثيرات خاصة على

حضارة مصر في عصر ما قبل التاريخ، أستمرت واضحة في العصر الطيني، فقد أنشغل الملوك في وضع النظام الحكومي، ولما تم لهم ذلك بدأت مصر تعبر عن نفسها بطابع مصري صميم.

الملك: كان الملك إلهًا يجمع في يده السلطة كلها بإعتباره وريثًا لحورس وكان إسمه يكتب داخل إطار يمثل القمر الملكي ويعلوه الإله حورس (الصقر). وترجع حفلة التتويج المزدوج، التي أستمرت طول العهد الفرعوني، والتي بها يبدأ الملك حكمه؛ إلى هذا العصر؛ وفيها يلبس الملك تاجي الوجهين ويعقد نباتا اللوتس رمز مصر العليا والبردي رمز الدلتا.

وكان يعاون الملك موظفان مهمان يحملان لقب حامل أختام الإله (أي ملك الوجه القبلي)، وحامل أختام ملاك الوجه البحري؛ وكانا يرأسان بيت المال المزدوج؛ ويكلفان بالمأموريات الهامة؛ وقد أصبح اللقب الثاني فيها بعد رمزيًا بحتًا.

العمارة: كان القصر الملكي مبنيًا من اللبن والخشب، شأنه في ذلك شأن معابد الآلهة والمقابر الملكية ومقابر الأفراد، التي أتخذت شكل المصطبة. ويتميز القصر الملكي ببوابتين ومداخل محصنة.

نظام الحكم: أستمر التقسيم القديم إلى مقاطعات لأغراض إدارية، وكان يرأس كل مقاطعة حاكم. وعرف في ذلك العصر نظام التعداد كل عامين كما كان يدون إرتفاع النيل وقت الفيضان.

الفن: كانت التماثيل صغيرة الحجم، والملكية منها متقنة الصنع.

وقد عثر في مقبرة أحد عظماء تلك الفترة (حماكا) على أدوات وأسلحة وحلى من العاج؛ تدل على درجة كبيرة من التقدم.

رابعًا- حضارة الدولة القديمة (٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م)

الديانة: الإعتقاد في البعث والحساب: أعتقد المصريون أنه كانت هناك عناصر روحية تنفصل عن الجسد عند مماته أهمها البا وهي الروح. وكانت تمثل أولًا بشكل طائر ثم مثلت بطائر له رأس إنسان وهي تزور الجثة من آن لآخر، ولذا عنوا بحفظ الجثة وبكتابة أسم الميت في المقبرة.

وهناك عنصر الكا وهي بمثابة قرين شبيه بالإنسان ومثلوه بذراعين مرفوعين.

وترجع عقيدة المصريين في الحياة بعد الموت إلى عصور سحيقة، وكانت أقدم العقائد أن الميت يعيش في قبره فوضعوا له القربان والأدوات اللازمة لحياته الشبيهة بالحياة الدنيا. وكانوا يدفنون موتاهم عادة في الغرب كما كان لكل جبانة إله للموتى يختلف من مقاطعة لأخرى.

ثم صار أوزيريس إله جبانة أبيدوس، إلهًا لجميع الموتى. وأعتقدوا أن الميت قد يغادر قبره نهارًا ليطوف بمساكن الأحياء، ولكن طوافه هذا لم يكن مرغوبًا فيه إذ أنه حسود يجر الناس للفناء.

ويتضح من أقدم المستندات الخاصة بعقيدة الملوك، وهي نصوص الأهرام، أن الملك يلحق بموكب الشمس بعد وفاته، بل أنه يصير رع نفسه فيعبر السماء في قاربه نهارًا محوطًا بالآلهة، ويمر موكبه ليلًا في عالم الظلام تحت الأرض حيث تسكن أرواح الموتى التي ترحب بنور رع وتتعلق بقارب الشمس، لتتخلص من عالمها المظلم المليء بالأرواح والمخلوقات الغريبة والثعابين والشياطين.

وفي نصوص الأهرام، أختلطت عقيدة الشمس بعقيدة أوزيريس الأقدم منها والتي تضمن للملك المتوفي ملك العالم الآخر بوصفه أوزيريس نفسه.

أما في السماء، فكان للموتى مقر ينعمون فيه بحياة تشبه حياة أهل الأرض، فيزرعون ويحصدون ويمرحون في أرض ممتازة الخيرات.

وقد تقبل المصري هذه العقائد، رغم ما فيها من تناقض لأنه رغب في ضمان حياته الأخرة بأي طريق. وقد أنتشرت هذه العقائد بين الطبقات الراقية حين ضعف ملوك الدولة القديمة وقوى أمراء الأقاليم، ثم صارت شعبية تمامًا منذ عصر الإضمحلال الأول.

وهناك ما يدل على أن المصري كان يعتقد في الحساب في العالم الآخر، وأن سعادته هناك تتوقف على تأدية الشعائر الدينية إبان حياته. أما الملك فكان مسئولا عن عدله على الأرض أمام رع إله الشمس.

وفي نصوص مقابر الأفراد من أواخر الدولة القديمة ما يوحي بمرحلة أكثر فهمًا وتقدمًا، إذا بدأوا يهتمون بالناحية الخلقية، فكان الميت يمدد أعماله الطبية من رحمة وإحسان وعدل لتشفع له عند رع.

أما فكرة محكمة أوزيريس فيبدوا أنها نشأت في الدولة الوسطى (أنظر قصة أوزيريس).

المعبودات. أخذ المصري الأول يؤله ما حوله من قرى الطبيعة النافع منها والضار فعبد السماء والشمس والكواكب والأرض والحيوان والنبات وما أبتدعه خياله من أرواح تسكن الصحراء والتلال.

المعبودات المحلية: وكانت معظم الآلهة في البداية محلية وبتطور

الحياة السياسية أخذت تتخطى مناطق نفوذها وبإرتقاء الحياة الإجتماعية أخذت تتزوج كالبشر فوجد نظام ثالوث الآلهة ومن أهم أمثلته ثالوث أوزيريس وإيزيس وحورس. وأدى التنافس بين المدن والآلهة من أجل التفوق السياسي إلى تأليف القصص الديني للتوفيق بينها ولشرح خلق العالم وموقف الآلهة من الناس فنشأت أسر إلهية أكبر تضم الواحدة تسع آلهة أو ثمانية.

المعبودات العامة: وكانت تعبد في مصر كلها، ولكن بأسماء وأشكال تختلف بإختلاف مناطق عبادتها، ومن أمثلتها الآلهة الكونية كالشمس والقمر والكواكب والسماء والأرض، علاوة على النيل.

وكانت كل أسرة حاكمة تعمل على جعل إله المنطقة التي نشأت فيها إلهًا رسميًا للدولة. فكانت عبادة حورس هي الرسمية في العصر الطيني، وأصبح رع الإله الرسمي منذ الأسرة الخامسة إذ يبدو أن ملوكها كانوا من كهنته.

ومنذ الأسرة الحادية عشرة التي نشأت في طيبة، أخذ نجم إلهها آمون يعلو حتى صار إلهًا رسميًا وأستمر كذلك طوال عهد الإمبراطورية. ولكي تروج عبادة إله قليل الشأن كان يلحق بإسمه إسم إله شهير فالإله رع أصبح رع حورس، وصار آمون منذ الدولة المتوسطة آمون رع.

وتنقسم الآلهة من حيث ماهيتها وشكلها كالآتي: – (١) آلهة كونية مثل رع (الشمس) ونوت (السماء) (٢) آلهة بهيئة بشرية مثل أوزيريس

وإيزيس ونفتيس (٣) آلهة على شكل الحيوان كآمون (كبش) وتحوت (أبو منجل) وحورس (صقر) (٤) آلهة تمثل أفكارًا معنوية مثل تباح (الخالق المبدع) ومعات (الحق).

تطور بناء المقابر: (شكل ٣) أدت عقيدة المصريين في الحياة الآخرة إلى عنايتهم ببناء المقابر لتأمين مصائرهم، فكانت مقابر الملوك والأفراد في الأسرتين الأولى والثانية بشكل مصطبة تطورت من كوم الرمل والحجارة الذي كان يعلو حفرة الدفن في عصور ما قبل التاريخ، وفي الأسرة الثالثة بنيت المصاطب من اللبن وأتخذت سطوحها الخارجية شكل مشكاوات تمثل واجهة القصر مكررة (داخلات وخارجات)، وقد يكتفي بداخلتين في الشمال والجنوب من جانب المصطبة الشرقي، أما غرفة الدفن فكانت تحت الأرض. وفي الأسرة الرابعة بنيت المصاطب من الحجر في صفوف منتظمة تحيط بهرم الملك. ولما زاد نفوذ الأمراء في الأسرتين الخامسة والسادسة، كبرت مقابرهم (بينما صورت مقابر الملوك) وصارت تحوي في جزئها الذي فوق الأرض، عددًا كبيرًا من الحجرات، على جدرانها مناظر لما يرجو أن يستمتع به صاحب المقبرة في العالم الآخر، وكان الملك خوفو قد حرم على عظماء الأفراد في عهده نقش مثل هذه المناظر.

وفي الأسرتين الخامسة والسادسة كذلك حفرت بعض المقابر في الصخر على شكل مصطبة.

تطور المقبرة الملكية:

أتخذت مقابر ملوك الأسرتين الأولى والثانية شكل المصطبة من اللبن.

ورصفت أرضية حجرة الدفن في بعضها بالحجر. وفي الأسرة الثالثة بني زوسر لنفسه مصطبة كبيرة من اللبن في بيت خلاف قرب أبيدوس تعلو إثنتي عشرة حجرة تحت سطح الأرض.

ولما نقل زوسر عاصمته إلى منف بني أول بناء حجري في العالم، وهو هرمه المدرج (في سقارة). وأخذ بناء المقبرة الملكية منذ ذلك الوقت يتجه نحو الشكل الهرمي المنتظم فبني سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة هرمه المنحني في دهشور من الحجر الجيري، وهرمه الكاذب في ميدوم، وهو مصطبة كبيرة تعلوها مصطبتان أصغر منها، ثم بني أقدم هرم منتظم في دهشور. ولما جاء خوفو إلى العرش، شيد مقبرته المعروفة بالهرم الأكبر في الجيزة وتلاه خفرع ومنقرع فبني كل منهما هرمًا أصغر من سابقه.

وفي نهاية الأسرة الرابعة أتخذت المقبرة الملكية شكلًا يقرب من التابوت الضخم؛ ومن أمثلتها مقبرة الملكة خنت كاوس بالجيزة. وفي الأسرتين الخامسة والسادسة رجع الملوك إلى بناء أهرامات يلحق بها معبد جنازي ومعبد للوادي وطريق صاعد، ولكنها أهرامات صغيرة تشعر بتناقص سلطة الملوك وتضاؤل مواردهم.

ومنذ أواخر الأسرة الخامسة، نقش الملوك على جدران غرف الدفن في أهراماتهم، تعاويذ دينية أعتقدوا أنها تحفظ جثثهم وتحول رسوم الطعام والشراب إلى حقائق، وتضمن لهم ملك العالم الآخر، وتسمى هذه النقوش «نصوص الأهرام»، وتعد أقدم مرجع لبحث ديانة المصريين القدماء، وكان أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة، أول من نقشها على جدران غرف هرمه بسقارة.

هرم زوسر: بني أولًا على شكل مصطبة حجرية، ثم زيدت فيها عدة زيادات حتى أتخذت الشكل الهرمي ذو الست درجات والبالغ إرتفاعه نحو ٦٠ مترًا. وهو يحوي في داخله الكثير من الدهاليز والممرات المغطاة بالقيشاني الأزرق والأخضر وعليها أسم الملك وألقابه، وعثر فيها على آلاف من الأواني المرمرية الجميلة، وتقع حجرة الدفن في قاع بئر عميق تحت سطح الأرض. ويقوم الهرم المدرج وسط مساحة تبلغ نحو سبعين فدانًا يحوطها سور حجري عظيم تزينه مشكاوات تمثل واجهة القصر؛ ويؤدي المدخل الموجود في جانب السور الشرقي إلى بهو طويل به أعمدة رشيقة، ربما كانت أصلًا للأعمدة اليونانية.

وعلى عكس ما ساد فيما بعد؛ يقع المعبد الجنازي شمالي الهرم، وإلى الشرق من المعبد وخارجه توجد غرفة السرداب، وهي مغلقة تمامًا من جميع نواحيها، وكانت تحوي تمثالًا للملك يتجه إلى الشمال ولا يزال محفوظًا بمتحف القاهرة.

إيمحتب: أشتهر بالذكاء والبراعة في كافة نواحي العلوم وخاصة

الحكمة والطب والهندسة؛ ويبدو أنه كان الساعد الأيمن لزوسر في إدارة البلاد كما كان كاهنًا أعلى لرع؛ ويروى أن حكمته وحسن تصرفه أنقذا مصر من مجاعة شديدة أصابتها بسبب إنخفاض النيل.

وتظهر براعته في الهندسة في روعة ودقة مباني زوسر في سقارة التي أشرف إيمحتب على إقامتها؛ ورشحته براعته في الطب لتولي منصب طبيب الملك الخاص، بل إن الناس كانوا يذكرون طبه بعد موته وأعتبروه فيما بعد إلهًا للطب، وشبهه اليونانيون بإسكليبيوس إله الطب عندهم. وفي

عصر البطالمة أعتبر إيمحتب في مدينة منف، إبنًا للإله بتاح وأقيمت له تماثيل عدة بعضها بمتحف القاهرة.

الهرم الأكبر: وكان يسمى (أفق خوفو) ويمتاز بضخامته فتبلغ مساحة قاعدته نحو ١٣ فدانًا وطول ضلعها نحو ٢٣٣ مترًا وكان أرتفاعه ١٤٦ مترًا (صار الآن ١٣٧ مترًا) وأستخدم في بنائه نحو مليونين وثلاثمائة ألف حجر زنة كل منها طنين ونصف.

وأخذت معظم أحجار الهرم من المضية التي بني عليها، ويرجح أنهم كانوا يبنون طبقات الهرم، وعند تمام البناء كانوا يضعون الكساء الخارجي من الحجر الجيري الأبيض المجلوب من طره مبتدئين – بالقمة، وقد ضاع هذا الكساء في الوقت الحاضر. ويروى أن بناء الهرم أحتاج إلى إستخدام مائة ألف عامل لمدة ثلاثة أشهر كل عام، حين يغمر

الفيضان الأرض فتقف أعمال الزراعة. ويقع مدخل الهرم في جانبه الشمالي على إرتفاع خمسة عشر مترًا من سطح الهضبة، وهو يؤدي إلى ممر منحدر يخترق البناء ثم الهضبة وينتهي بممر ضيق يؤدي إلى حجرة محفورة في الصخر لم يكمل إنشاؤها.

ويخرج من الممر المنحدر ممر صاعد يخرج منه ممر أفقي ينتهي بحجرة تسمى حجرة الملكة وهي ذات سقف على شكل جمالون، أما الممر الصاعد فيؤدي إلى دهليز صاعد، سقفه بشكل جمالون وينتهي بممر يؤدي إلى غرفة الملك الواسعة والمكسوة جدرانها وسقفها بأحوار جرانيتية ضخمة مصقولة. ويعلو هذه الحجرة خمس حجرات صغيرة لتخفيف ثقل الأحجار على غرفة الدفن التي تحتوي على تابوت من قطعة واحدة من الجرانيت، خال من الزخرفة والنقوش، ولكنه وجد مكسورًا خاليًا من الجثة. ومن كل من حجرة الملك وحجرة الملكة، يخرج منفذان يخترقان البناء إلى سطح الهرم الخارجي، ويرجح أن الغرض منهما كان دينيًا.

وكان يلحق بكل هرم؛ وإلى الشرق منه، معبد قرب النهر يسمى معبد الوادي، يجتمع فيه أهل الملك وخاصته، ومعبد ملاصق لجانب الهرم الشرقي ويسمى المعبد الجنازي، وفيه يجري تقديم القربان للملك المتوفي، وتؤدي طقوس عبادته كإله. ويصل بين المعبدين طريق طويل صاعد. ولم يعثر على معبد الوادي لهرم خوفو، ولكن عثر على مثيله لهرم خفرع بحالة لا بأس بها. أما معبد خوفو الجنازي، فلم يبق منه إلا

بعض أحجار الأرضية من البازلت.

وكان يحفر حول الهرم حفرتان أو أكثر لمراكب الشمس، إحداها لرحلة النهار (معنجت) والأخرى لرحلة الليل (مسكنت) ولقد عثر حديثًا على مراكب الشمس الخاصة بالملك خوفو. وتعد لقية فريدة، نظرًا لأنه لم تصلنا من قبل مراكب كاملة للشمس.

وتحيط بالهرم الأكبر مجموعة منتظمة من المصاطب الحجرية تحوي أجداث النبلاء ورجال الحاشية، ليخدموا سيدهم في الآخرة، كما خدموه على الأرض.

ما يدل عليه بناء الأهرام: يبدو أن للشكل الهرمي، الذي بدأت المقبرة الملكية تتخذه منذ عهد زوسر، علاقة قوية ببداية إنتشار عبادة الشمس وتعلق الملوك بها، فمثلوا بالشكل الهرمي لمقابرهم، الوسيلة التي توصلهم إلى السماء، إذ جاء في نصوص الأهرام ذكر السلم الذي يصعد عليه الملك إلى السماء.

ويمكن إجمال ما يدل عليه بناء الهرم فيما يلي: –

(١) تقدم فكرة المصريين عن البعث، فلم يقنعوا بالمصطبة وأتجهوا إلى بناء الأهرامات الفخمة وما يلحق بها من معابد بلغت منتهى عظمتها في عهد الملك خوفو.

(٢) إستقرار النظام الإداري مما مكن الملوك من تسخير موارد الدولة

وسواعد رجالها في بناء المقبرة الملكية بهذه الفخامة.

(٣) قوة شخصية الملوك، وخاصة في عهد الأسرة الرابعة، مكنهم من تحقيق رغبتهم في تأمين جثثهم عن طريق فخامة أهراماتهم بينما تشهد أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة الصغيرة غير المتينة بما أصاب الملكية من ضعف.

(٤) التفوق العظيم من الناحيتين المعمارية والهندسية فإستطاعوا رغم وسائلهم الأولية نقل الكتل الحجرية الضخمة ورفعها إلى هذا العلو الشاهق وتوجيه أضلاع قاعدة الهرم إلى الجهات الأصلية بغير خطأ يذكر، وتنظيم إنحدار جوانب الهرم.

(٥) يشهد إنشاء مصاطب الأمراء ورجال الحاشية حول هرم الملك بإلتفافهم حوله وبإبتداء إنتقال عقائد الملوك إلى كبار رجال الدولة بشكل جعل الملوك يسمحون لهم بمشاركتهم في التمتع بالحياة الأخرى.

نظام الحكومة

كانت الحكومة ملكية مطلقة يرأسها الملك ويعاونه الوزير والموظفون.

الحكومة المركزية: وكان على رأسها الوزير. وأول وزير مصري كان نفرماعت، وزير سنفرو، ونظرًا لأهمية هذا المنصب كان يشغله أحد أبناء

الملك أو أحد أفراد الأسر الكبيرة. وكان الوزير يرأس مصلحة الزراعة؛ وبيت المال الذي يتولى جمع الحاصلات من المقاطعات كما كان يرأس مكتب المحفوظات الملكية، ويعاونه رؤساء البعثات وهم حلقة الإتصال بين الإدارة المركزية وحكام المقاطعات، ورئيس بيت المال الذي يربط الضرائب على المقاطعات، وحاملو أختام ملك الوجه القبلي والوجه البحري. ويعاون هؤلاء جميعا جيش من الكتبة والموظفين.

سلطة الملوك: كان الملك سليل الآلهة، بل هو حورس نفسه، يجمع في يده السلطات كلها، فهو الكاهن الأعظم، وهو الذي يضع القوانين، ويصدر الأوامر ويعين كبار الموظفين. وهو الذي ينشئ المحاكم ويعين القضاة، كما كان القائد الأعلى للجيش. ورغم سلطته المطلقة فقد كان مسئولًا عن عدله أمام رع وباقي الآلهة، وكانت له حاشية كبيرة وصلتنا ألقاب كثير من أفرادها، مثل الرفيق الوحيد، ومرجل شعر الملك وحامل المروحة وغير ذلك.

صفاتهم الإلهية: لا يمكن الفصل بين الملكية والدين في مصر القديمة فقد حكم الآلهة مصر من قديم، وكان منهم أوزيريس الذي صار ملكًا للعالم الآخر بعد أن ترك العرش لأبنه حورس، ومنه تناسل ملوك مصر. وكان الملك يتقمص شخصية حورس في حياته، ثم شخصية أوزيريس بعد موته، فهو إله الدنيا والآخرة، وكانت الآلهة تتولى تنصيب الملك على عرشه في حفل يوضع فيه التاج المزدوج على رأسه، بينما يربط كاهنان يمثلان حورس وتحوت نباتي الوجهين.

ومنذ النصف الثاني للدولة القديمة، أخذت سلطة الملك تتناقص فصار إلهًا طيبًا، ثم أبنًا لرع، بعد أن كان يلقب بالإله العظيم حتى إذا جاء عهد الإضمحلال الأول قضى على هذه القدسية الملكية.

الحكومة المحلية: كانت مصر تنقسم إلى ٤٢ مقاطعة يبدو أنها بقايا إمارات ما قبل الأسرات، وكان يرأس كل منها حاكم يعينه الملك.

حكام الأقاليم وواجباتهم: – أول لقب لحاكم المقاطعة هو «المشرف على حفر القنوات» أي كانت وظيفته الأساسية الإهتمام بالزراعة والري، ثم صار يحمل لقب «حاكم المقاطعة» ثم «قائد الإقليم» وكان يهتم بتعداد الماشية كل عامين وتدويين إرتفاع الفيضان، وتقدير الضرائب وجمعها، وإرسالها إلى العاصمة. كما كان يرأس محكمة المقاطعة، وينوب عن الملك في رئاسة كهانة الإقليم. وكان عليه أن يجمع الجنود ويجهزهم ويقودهم للحرب عند الضرورة، كما كان يجمع الشبان لأعمال الخدمة الإجبارية كبناء المعابد والأهرام والجسور وما أشبه.

جمع الضرائب: وكان رئيس بيت المال يقرر مقدارها على المقاطعة فيتولى الحاكم جمعها من الأسر، كل بحسب ثرائها، ثم يرسلها إلى بيت المال مع كشوف تبين مقاديرها من محاصيل ومصنوعات وأغنام، وطيور.

النظر في القضايا: – يبدو أنه كان هناك محكمة عليا في العصر الطيني، صارت تتألف من عظماء الجنوب السته، بإشراف الوزير. أما في

المقاطعة فقد كان الحاكم يرأس محكمة الإقليم. ويظهر أنه كان هناك قانون مكتوب، لم يصلنا منه شيء. أما إجراءات نظر القضايا، فكانت بتقديم الشكوى إلى قاضي التحقيق، الذي يسأل المتخاصمين والشهود، ثم يعرض النتيجة على المحكمة، فتصدر حكمها بأسم الملك.

الموظفون: – وكانوا يختارون من النبلاء المثقفين، ولقد زاد عددهم تبعًا لتشعب المصالح والإدارات. أما الكتبة فكانوا كثرة ينتشرون في الحقول والصوامع، إذ لم يكن عنهم غني في كافة الأعمال. وكانت هناك وظائف لا يباشر أصحابها عملًا ما كالسمير الوحيد أو حامل النعل الملكي، وحامل المروحة وغيرهم. وكانت المرتبات من إيراد الضرائب، ويرقى الموظف إذا حاز رضى مولاه. كما كان الملك أحيانًا يكافئهم ببناء وتجهيز مقابر لهم، توقف عليها الأراضي لخدمتها.

أتساع العاصمة: ذكر المؤرخون القدامى كيف أسس مينا مدينة منف بأن حول مجرى النيل ناحية الشرق قليلًا، وسميت بالجدار الأبيض نسبة للسور المحصن الذي أحاط بها. ولقد بلغت أوج عظمتها منذ الأسرة الثالثة، حين أنتقل إليها مقر الحكومة، فأخذت تعمر بقصور الملوك والأمراء، كما شرع الملوك يبنون أهرامهم وملحقاتها، والأشراف مصاطبهم في جبانتها التي أمتدت من أبو رواش شمالًا إلى دهشور جنوبًا. هذا وقد بدأ الملوك منذ الأسرة الخامسة يقيمون معابد الشمس في هذه المنطقة مما أضفى عليها أهميه دينيه أيضًا.

الإدارات الحكومية: أحتفظ المصريون – رغم التوحيد – بذكرى

الإنقسام إلى مملكتين في إزدواج الإدارات الحكومية ومن أهمها: -

١- مكتبة المحفوظات الملكية: وهو مقر الوزير، وفيه تحفظ السجلات والأوامر الملكية.

٢- إدارة الحقول: وتختص بشئون الزراعة والري وتربية الحيوانات.

٣- بيت المال: وكان في العصر الطيني من إدارتين. البيت الأبيض للوجه القبلي والبيت الأحمر للوجه البحري. ثم صار يسمى البيت المزدوج الأبيض. وكان يشرف على جمع الضرائب وإستثمار المناجم وإعداد القوافل والأساطيل التجارية. وكانت الإيرادات تحفظ في الشونة المزدوجة.

٤ - إدارة الأشغال العامة: وتختص بمشاريع البناء والتعمير كبناء جبانة الملك والمعابد والحصون، ثم حفر الترع وإقامة الجسور.

العلاقات بين الملك والأمراء: - كان حاكم الإقليم يتبع الإدارة المركزية فكان من حق الملك نقله من إقليم إلى آخر. ولكن لم يستعمل ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة هذا الحق، إعتمادًا على قوة شخصيتهم.

وبدأ الضعف ينتاب هيبة الملكية في النصف الثاني للدولة القديمة، ويرجع هذا إلى أن الملوك عمدوا إلى منح الإقطاعات الواسعة لكبار الموظفين، ولمعابد الآلهة. فإنكمشت ثروة الملوك. كما تغاضى الملوك عن إجراء تنقلات بين حكام المقاطعات مما قوى الروابط بينهم وبين

أقاليمهم. بل أنهم سمحوا لهؤلاء الحكام بتوريث وظائفهم لأبنائهم؛ فقامت بهذا أسر إقطاعية قوية. ولقد حاول ملوك الأسرة الخامسة تدارك الأمر، فأنشأوا وظيفة حاكم الجنوب لمراقبه تصرفات أمراء الأقاليم. ولكن لم يلبث أن تسمى بعضهم بهذا اللقب. وقرب نهاية الدولة القديمة أخذوا يحيطون أنفسهم بحاشية خاصة ويبنون مقابرهم في مقاطعاتهم. بل لقد أرخوا الحوادث تبعًا لسني حكمهم. وقد كان هذا كله خطوات في طريق التفكك الذي أصاب البلاد في عهد الإضمحلال الأول حينما زاد إعتماد أمراء الأقاليم على أنفسهم وأستقلوا بحكم مقاطعاتهم.

الحياة الإجتماعية

طبقات المجتمع: طبقة الأمراء والأشراف وكبار الموظفين وعلى رأسهم الملك ثم طبقة الشعب من زراع وأرباب حرق وتجار، ورجال الدين.

الملك (فرعون): كان يقيم في قصر مزدوج المدخل؛ إشارة لتوحيد الوجهين، ويعرف القصر بأسم البيت الكبير برعا، ومنها إشتقاق كلمة فرعون، التي أصبحت تطلق على الملك نفسه. وكان يعتبر أحد أفراد أسرة الآلهة، فكان لذلك صاحب التصرف المطلق في الأرض وما عليها. وكان الشعب لا يرى في بناء المعابد والجبانة الملكية، أي مظهر من مظاهر العبودية بل كان بهذا يخدم الإله.

الأمراء: وهم أفراد الأسرة المالكة، والأشراف وكبار الموظفين، يمتلكون الضياع الواسعة، ويشغلون الوظائف الهامة، وكانوا موضع إحترام العامة.

رجال الدين: وكانوا نوابًا عن الملك في مزاولة مهنتهم. وكان الشعب يجلهم لإتصالهم بالآلهة. وكان على رأس كل جماعة كاهن أعظم يليه رتب الكهنة الرسميين ويعاونهم عدد كبير من الخدم والصناع. كما كانت وظائف الكهنة تنتظم عددًا من النسوة. وتميزهم أزياء خاصة. وكانوا يتمتعون بأوقاف المعابد والقرابين حتى أغتنموا وعظم نفوذهم فوصلوا للعرش في الأسرة الخامسة.

أرباب الحرف والصنائع: وكانت طبقتهم تضم البنائين والفنانين، وصانعي النسيج والأواني والحلى وغير ذلك. وكانت طائفة منهم تعمل حرة، وأخرى تعمل في مصانع الحكومة أو الأشراف أو المعابد. وكانوا يورثون حرفهم لأبنائهم. ولم يمنع هذا أن يتعلم أبن الصانع إلى جانب أبناء الأشراف، فيتاح له الإرتقاء في مناصب الدولة. وينتمي لهذه الفئة طبقة التجار أيضًا.

الرقيق: وكانوا أغلبية الشعب، زراعًا مرتبطين بالأرض، يؤدون عملهم مقابل جانب من المحصول، وفي زمن الفيضان يسخرون في العمل في منشآت الحكومة، مقابل مقادير كافية من الملبس والطعام.

الحياة في قصور الملك والأمراء: كان قصر الملك رغم بنائه من اللبن،

فخمًا واسعًا يليق بمقامه، ويتسع لحريمه، وأبنائه، وحاشيته، وموظفي القصر من طباخين وخبازين وصانعي الجعة والمعطرين، والمشرفين على الثياب والتيجان وغير ذلك. ويبدأ الملك يومه بمقابلة كبار الموظفين فيستمعون إلى تعليماته، ويقدمون له تقاريرهم. وقد يخرج لتفقد مرافق الدولة، أو للإشراف على طقوس عبادة الآلهية في المعابد وفي أوقات لهوه يخرج مع أتباعه للصيد في الأحراش، أو يستمتع بالجلوس في حديقته الحافلة بالزهور والفواكه، أو يستقل قاربًا للنزهة في النيل أو في بحيرة القصر، أو يتصدر ما يقام في قصره من حفلات وولائم، يستمتع فيها المدعوون باللهو والمرح.

ولم تكن حياة عظماء الدولة لتختلف عن ذلك كثيرًا، كما يتمثل في مناظر مقابرهم، فيتزينون في الصباح، ثم يستقبلون موظفيهم ويتفقدون ضياعهم فيعاقبون المسيء، ويستعرضون الماشية. وهذه المناظر مهمة من حيث تصوير حياة القوم اليومية. وقد يخرجون لصيد الحيوان في الصحراء أو الأسماك والطيور في الأحراش. أما مناظر المنزل الداخلية فترينا قطع الأثاث، وأدوات الزينة والملابس. ومنها صور لحفلاتهم بما فيها من موسيقى وطرب ورقص، بينما تمر على المدعوين أقداح الجعة والنبيذ.

الحياة العائلية: كان الرجل عماد الأسرة. تليه الزوجة في الأهمية، ولكن إحترامها كان واجبًا على الزوج والأبناء. وكان الأبناء يحملون أسم أمهم. كما أن الدم الملكي كان ينتقل عن طريق الأم. ولم يكن هناك فارق بين الذكر والأنثى في الميراث. وكان الزوج عادة يكتفي بزوجة

واحدة وتتولى الزوجة الإشراف على أعمال المنزل. أما الأبناء فنمثلهم تماثيل الدولة القديمة بجوار سيقان آبائهم. ولكن هذا لا يدل إلا على آداب اللياقة السائدة، إذ كان الأبناء يشتركون مع آبائهم في النزهة واللهو.

تربية الأطفال: وكانوا يربون على إحترام آبائهم. وكان الأطفال يذهبون إلى المدرسة (بيت الحياة) في سن مبكرة، فيتعدون الكتابة والقراءة وعلوم الفلك والحساب والدين وكان الأساتذة يلجأون لإستخدام القسوة مع تلاميذهم أحيانًا، كما كان الأب من جانبه يخلف لأبنه من بعده ميراثًا طيبًا من الحكم والنصائح.

ألعاب التسلية: كان الكبار يلعبون الضاما، والتحطيب أو المصارعة.

كما كان النساء والأطفال يتقاذفون الكرة، وكان الصيد رياضة الأشراف المحببة.

الموسيقى: كانت تحتل مكانًا ممتازًا في حفلاتهم، كما كانت للقصر الملكي فرقة خاصة. وكانوا يستعملون آلات بسيطة مثل القيثارة ذات الأوتار الستة، ويستعملها العازف جالسًا وإلى جانبه نافخو المزمار الطويل أو المزمار القصير. ويصاحب هذا دق الطبول والدفوف وكان المغني يضع يده تحت أذنه بينما يصاحبه الحضور بطرقعة الأصابع أو التصفيق. وترقص الراقصات ماسكات الصنوج.

الصناعة

الصناعات المختلفة: أستغل المصريون ما كان متوفرًا في بلادهم من أحجار ومعادن كريمة وشبه كريمة، كالجرانيت والمرمر والصوان والحجر الجيري والحجر الرملي والذهب والفضة والنحاس. وظهرت براعتهم في تفهم خصائص كل مادة بدرجة مكنتهم من حسن إستغلالها وإظهار جمالها.

الأواني النحاسية: أستطاع المصريون أن يصنعوا من النحاس آلات دقيقة، كما عرفوا طرق النحاس، وصنع الأواني النحاسية البديعة التي كان الأغنياء والعظماء يستعملونها على موائدهم. ولقد وجدت أمثلة من هذه الأواني في بعض المقابر كما وجدت رسوم بعضها على الجدران.

الأسلحة: كانت أقدم الأسلحة من الظران، ولقد أستمر إستخدامه في صناعة الأسلحة في الدولة القديمة. على أن النحاس أستخدم أيضًا في صناعة رؤوس الحراب والسهام. وكانت رؤوس الحراب تركب في ساق خشبي، وهي خاصة بفرق المشاة. أما الرماة فكانت عدتهم القوس والسهام أما الحديد فلم ترد له أمثلة مما يدل على أنه ربما لم يكن يعرف حتى ذلك الوقت.

الأواني من الفخار والزجاج: في عصر ما قبل الأسرات كانت صناعة الأواني الفخارية في قمة رقيها. أما في عصر الأسرات فقد راجت صناعة الأواني من الأحجار الجميلة كالمرمر والجرانيت. ويدل ما خلفوه لنا منها

على براعة صناعها وحسن ذوقهم. ومن أمثلتها ما وجد مكدسًا في ممرات هرم سقارة المدرج.

وكانت الأواني الفخارية تدهن بطبقة من مادة حمراء مصقولة، أما الزجاج فلم يستخدم إلا كنوع من الطلاء الخزفي.

الخزف: عرف من عصر ما قبل الأسرات، وهو نتيجة صهر الكوارتز والرمل، ثم يضاف إليه اللون المطلوب. وكان يستخدم في الدولة القديمة في صنع التمائم والجعارين، وفي طلاء الأواني.

النسيج: كانوا يستخدمون جلود الحيوانات المدبوغة في صنع الأغطية والوسائد والمظلات، وفي الدولة القديمة، صنعوا من الكتان أنسجة متينة ولكن خشنة. وقد عثر في بعض المقابر على أنسجة كتانية دقيقة شفافة. وإلى جانب ذلك صنعوا بعض منسوجاتهم من ألياف نبات البردي، وكانت أنوال النسيج، في الدولة القديمة، توضع أفقيًا ويقوم بالعمل عليها النساء، بعكس الحال في الدولة الحديثة.

البردي: كان ينمو في مستنقعات الدلتا، ثم أنتشر في الوجه القبلي. وقد أستخدمه المصريون في أغراض كثيرة، من أهمها صناعة الورق الذي كان عاملًا هامًا من عوامل إنتشار الكتابة المصرية إلى فينيقيا، ومنها إلى البلاد الأخرى. وكانت طريقة صناعة الورق أن يقطع اللب الداخلي لساق البردي، ويبلغ طولها عادة من سبعة إلى عشرة أقدام، وتوضع القطع متلاصقة متوازية، ثم توضع فوقها قطع أخرى متقاطعة معها، ثم تضغط

وتجفف في الشمس. وإلى جانب ذلك صنع المصريون من سيقان البردي القوارب الخفيفة، والحبال والحصر والصنادل.

أدوات الزينة: أهتم المصريون بأدوات الزينة للرجال والنساء على السواء منذ عصر ما قبل الأسرات، وقد عرفوا صنع العقود والأساور والمكاحل والمراود ودبابيس الشعر والأمشاط، من مواد مختلفة مثل الأحجار الكريمة من الخشب والعظم والعاج والنحاس والفضة والذهب، كما كانوا يستخدمون مرايا من النحاس المصقول.

وكانت الأمشاط عندهم ذات حد واحد أو حدين، وعلى جانبيها رسوم تمثل الحيوانات وغيرها.

بناء السفن: في عصر ما قبل الأسرات وفي العصر الطيني، كانت تصنع من سيقان البردي قوارب خفيفة تسير بالمجداف، كما كانت تصنع من الخشب، سفن نيلية أكبر حجمًا، وفي عهد الدولة القديمة أستخدمت قوارب البردي الخفيفة للنزهة والصيد في المستنقعات الهادئة، كما أنتشرت صناعة السفن النيلية الكبيرة في معظم مدن مصر، وكانت منها السفن الضخمة لنقل البضائع، واليخوت الشراعية الفخمة ذات المجاديف المتعددة، ليتنزه فيها الأمراء والعظماء. ونجد على جدران بعض مقابر الدولة القديمة، نقوشًا تمثل كيفية بناء هيا كل السفن وتجهيز أجزائها وتجميع الألواح الخشبية.

وروى هيرودوت أن المصريين كانوا يبنون سفن النقل من خشب

السنط المصري، فيركبون ألواح الخشب على عوارض طويلة متقاربة، ثم تشد الحافتان بلوح مستعرض فوق العوارض، وتسد الشقوق بين الألواح بالبردي، وتثبت الدفة في المؤخرة. وتقام في وسط السفينة سارية عليها شراع من نسيج البردي. ونظرًا لقلة الخشب المصري وعدم جودته، صنع المصريون كثيرًا من سفنهم من خشب الأرز التي كانوا يجلبونه من سوريا كما حدث في عهد سنفرو.

الأثاث: تدل قطع الأثاث التي عثر علها في سقارة وأبيدوس، على تقدم كبير في صناعتها في العصر الطيني. ووصلتنا من عهد الدولة القديمة، بعض قطع الأثاث من أسرة ومقاعد وصناديق أبنوسيه مطعمة بالعاج، مثل محفة الملكة حتب حرس.

وقد كانوا يصنعون الأسرة منخفضة من خشب الصنوبر، والملة من شبكة من الألياف المجدولة، أما مسند الرأس فكان عادة من الحجر. وكانت المقاعد تغطى بالذهب، وكانت على أشكال متعددة، كما كانت تنقش برسوم مختلفة. وكانت الموائد مستديرة أو مستطيلة أو مربعة، ترتكز على قائم في الوسط. وكانت أرجل الأسرة والمقاعد والموائد على شكل أرجل الحيوانات كالثيران والأسود، كما كانت تطعم بالعاج. وإلى جانب ذلك كانوا يصنعون الصناديق المستطيلة من الأبنوس المطعم ليحفظوا فيها ثيابهم. أما الأرضيات فكانت تفرش بالأبسطة.

التجارة

المواصلات: عرف المصريون في النيل أحسن وأسهل وسيلة للمواصلات والإنتقال شمالًا وجنوبًا مستعينين بتياره وبالرياح الشمالية. ولذلك أكثروا من إستخدام السفن النيلية في الإنتقال حتى أصبح التعبير عن الإنتقال شمالًا وجنوبًا بالنيل أو بالبر، بعبارتي النزول في النيل والصعود فيه. وقد أستغل المصريون تجاربهم في النيل في ركوب البحرين الأبيض والأحمر، في عهد الدولة القديمة. وكانت الجسور المجاورة للنيل، تربط القرى ببعضها، فأستغلها المصريون في إنتقالاتهم اليومية إلى القرى والأسواق مستخدمين في ذلك الحمار لصبره وتحمله ولأنهم لم يعرفوا الحصان والجمل والعربة إلا فيما بعد. وكان المصريون يستخدمون الحمار منذ أقدم العصور في القوافل والبعثات التي كانت ترسل للجهات البعيدة، كما كانوا يستخدمون الثيران لجر الأثقال وخاصة الأحجار المحمولة على الجرارات. وإلى جانب ذلك أستخدم المصريون الطرق البرية المؤدية إلى البحر الأحمر، لإستغلال المناجم وللإتصال ببلاد بنت، كما أستخدموا طريق الواحات للوصول إلى بلاد النوبة كما تدلنا الرحلات الإستكشافية من عهد الأسرة السادسة.

الأسواق المحلية: كان السوق يقام في محل عام في القرية أو المدينة وفي وقت معين، وكان يجتمع فيه الأهالي والفلاحون القادمون من الجهات المجاورة، حاملين سلعهم المختلفة لإستبدالها بغيرها مما يحتاجون إليه. ونرى في مناظر الأسواق المنقوشة على جدران بعض

مقابر الدولة القديمة، كيف يجلس أصحاب السلع خلفها على الأرض، وكيف يأتي إليهم المشترون فيتم بينهم تبادل السلع (على طريقة المقايضة). وكانت المبادلات تجري عادة في هذه الأسواق، على المواد القليلة القيمة مثل المأكولات والمصنوعات.

السفن: كانت السفن تنقل البضائع في النيل بين الشمال والجنوب، كما كانت السفن المصرية الفخمة تسير في البحرين الأبيض والأحمر بين مصر وسوريا وجزر البحر الأبيض وبلاد بنت. وتخبرنا نقوش حجر بالرمو أن سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة؛ جلب من سوريا كميات كبيرة من خشب الأرز محمولة على أربعين سفينة، وتعتبر هذه السفن أول أسطول بحري عرف في تاريخ العالم. وقد أستخدم خشب الأرز في صنع الكثير من السفن البحرية الضخمة التي نرى رسوم بعضها على جدران بعض مقابر الأسرة الخامسة.

وكانت السفن البحرية تسير عادة بجوار السواحل، كما كانت تخرج منه مواني معينة على شاطئ الدلتا.

طرق التجارة: لم تعرف حتى الآن على وجه التأكيد كيف كان المصريون يتعاملون في تجارتهم، ولكن السائد أنهم أتبعوا طريقة المبادلة كما تدلنا على ذلك رسوم مناظر السوق. ولكن يبدو أن المبادلة لم تكن تجرى إلا على السلع القليلة القيمة. أما الصفقات الكبيرة فيبدو أنهم أستخدموا فيها قطعًا من المعادن الثمينة، وإن كنا لا نستطيع الجزم بذلك.

التجارة الخارجية: -

أولاً: سوريا: - يرجع الإتصال التجاري بها إلى عهد ما قبل الأسرات، وخاصة بميناء ببلوس (جبيل). وقد أستمر هذا الإتصال طوال التاريخ المصري. ومن أمثلته في الدولة القديمة أن سنفرو جلب حمولة أربعين سفينة من خشب الأرز. وكان الملاحون المصريون يلتزمون الساحل في إبحارهم إلى سوريا، وتدفعهم الرياح في الذهاب ويستعملون المجاديف في العودة. كما أستخدموا الطريق البري عبر الصحراء الشرقية وفلسطين.

ثانيًا: بنت: - ويبدو أنها كانت تشمل الصومال وشاطئ بلاد العرب المواجه. وأعتقد المصريون أن آلهتهم قدمت منها. وكان الإتصال بها عن طريق البحر الأحمر، وتقوم الشواهد على قدم الإتصال بها.

ثالثا : النوبة والسودان: - كثر بينهما وبين مصر الإتصال التجاري منذ أقدم العصور. وكانت أسوان سوقًا تجارية هامة لواردات النوبة.

ولقد أهتم الملوك بتأمين طرق الإتصال البري بهذه البلاد، فأرسلوا الحملات العسكرية، والبعثات الإستكشافية إلى مجاهل هذه البلاد. وفي الأسرة السادسة وصل نفوذ مصر إلى الشلال الثالث، كما قام ملوكها بحفر خمس قنوات في صخور الشلال الأول، لتسهيل الإتصال بها عن طريق النيل.

وإلى جانب هذا كانت مصر على أتصال تجاري ببعض جزر البحر

المتوسط، وخاصة كريت.

الصادرات والواردات: كان المصريون يجلبون خشب الأرز والصنوبر، والأخشاب ذات الروائح العطرية، وزيت الزيتون والنبيذ من سوريا. ومن بونت جلبوا المر والصمغ والبخور. وكانت بلاد النوبة والسودان ترسل إلى مصر الذهب والعاج والأبنوس وريش النعام، والصمغ العربي، وجلود الأسود والفهود.

أما الصادرات فكانت تتألف من الغلال والنسيج والأواني وعصى الرماية والخرز، كما كانت مصر تقوم بدور التبادل التجاري بين هذه الدول، فتراها تتاجر في العاج والأبنوس والذهب، وجلد الفهد والبخور والتوابل.

الفن

الرسم والنقش والتصوير: يمتاز فن النقش في الأسرة الثالثة بدقته وقوة أشكاله، وكانت الأجسام مستطيلة نحيفة قوية، على أن الحركة كانت مقيدة هامدة. ومن بداية الأسرة الرابعة حفظ لنا منظر اوز ميدوم الشهير، بألوانه الجميلة وأشكاله الطبيعية الحية.

ولقد حرم خوفو على الأفراد رسم أو نقش المناظر في مقابرهم، فأكتفوا بلوحات القرابين التي تمثل الميت أمام مائدة حافلة بالطعام والشراب. ويلاحظ أن أجسامهم سمينة مليئة.

ثم اخذت المناظر تزداد في الأسرتين الخامسة والسادسة، حتى لقد صارت تغطى جدران حجرات المقبرة العديدة.

وكانت في أول أمرها تمثل ما له علاقة بإطعام الميت وشرابه ثم تعددت، وأشتملت على مناظر الطرب والنزهة والتسلية واللهو وغير ذلك، ما أخذت حركة الحيوان والخدم تتحرر بدرجة كبيرة.

النحت: تماثيل الملوك والأفراد تتخذ أوضاعًا محددة واقفة تخطو أو جالسة على مقعد وروعي فيها تمثيل الوقار والهيبة، كما يبدو في تمثالي زوسر وخوفو. ومن أبدع تماثيل الدولة القديمة، تماثيل خفرع، وفيها يتمثل الجلال الإلهي والعظمة الهادئة (شكل ٥)، وكذا مجموعات منقرع مع زوجته أو مع الآلهة. أما الأفراد فلقد حرم خوفو عليهم إقامة تماثيلهم في مقابرهم، فإستعاضوا عنها برءوس بديلة، توضع في مدخل حجرة الدفن. وبعد خوفو أستأنفوا عمل التماثيل. وتماثيل الأسرتين الخامسة والسادسة أقل جودة من تماثيل الأسرة الرابعة، ومن أهمها تمثال شيخ البلد، ورأس الصقر الذهبي.

خصائص الفن المصري

يجب ألا نحكم على فن المصريين قياسًا على فنوننا وأذواقنا الناضجة ، فلم يكن يقصد بالتماثيل والمناظر الزينة أو الفن لذاته، وإنما كانت ذات غرض ديني أو جنازي، ولذا كان أغلبها آثار مقابر، إذ كانت التماثيل وصور الأشخاص تمثلهم في الصورة التي يرجون أن يبتعثوا عليها في العالم الآخر، ومن ثم كانت الأجسام قوية شابة نشيطة، والأوجه جميلة يعلوها الهدوء والعظمة.

كما عني المثال والمصور بتمثيل أدوات الشرف كالعصا والصولجان وعلامة الحياة أو أدوات الكتابة، في حوزة صاحب التمثال أو الصورة، كي يتمتع بوظيفته في العالم الآخر. ولقد كان الغرض من تصوير أقارب الميت أو الخدم أو تمثيلهم، أن يتمتع الميت بصحبتهم وخدمتهم بعد موته. ولهذا كله عمد الفنان إلى تصوير الشيء بحيث تتضح تفاصيله، كأن يصور الشخص وجسمه من أمام ورأسه من الجانب. كما كان يمثل صاحب المقبرة في حجم كبير، يخطو إلى الأمام بنشاط وقوة، في حين تترى باقي المناظر في صفوف أفقية ضيقة.

إستخدام أحجار الجرانيت: أستخدم في العمارة بكثرة منذ عهد الملك خوافو، وفي معبدي خفرع كانت كسوة الجدران من الجرانيت الأحمر. وكسيت الطبقات السفلى لهرم منقرع بالجرانيت. وكانت بعض التوابيت تصنع منه من كتلة واحدة، وكذا الأساطين الضخمة.

وكان الحجر يقطع من أسوان بطرق بدائية لا بد كلفتهم كثيرًا من الجهد والوقت وكان الثقل في النيل على مراكب، وعلى زحافات تجرها الثيران برًا.

ولقد أتاحت طبيعة هذا الحجر، توخي الضخامة في البناء.

الأعمدة والأساطين: تمدنا منطقة زوسر بكثير من الأعمدة المربعة، وأشكال عديدة للأساطين المستديرة، كلها مبنية من قطع صغيرة من الحجر، تقلد حزم النباتات المغطاة بالطين، والتي كانت تسند المباني البدائية الخفيفة. وكان لبعضها تيجان على شكل زهرة اللوتس أو البردي، وكلها طويلة رشيقة.

وكانت أعمدة مباني الأسرة الرابعة مربعة قصيرة ومن الجرانيت.

أما أعمدة الأسرتين الخامسة والسادسة، فذات أشكال عدة، وبعضها من كتلة واحدة من الحجر، منها ما يمثل حزمة زهور اللوتس، أو حزمة سيقان البردي، أو ساق النخيل المستديرة، وكلها تقلد الطبيعية تقليدًا صادقًا. (شكل ٦)

إنتقال هذه الفنون إلى أوربا وغرب آسيا: –

تعتبر فنون مصر القديمة أقدم فنون العالم الناضجة، وعنها أخذت باقي الحضارات فلقد أنتشرت الأواني والحلى والأسلحة المصرية في أمم غرب آسيا وشاع طرازها ومماله أهميته أن أساطين اليونان الدورية الرشيقة لها ما يماثلها في منطقة زوسر.

خامسا : خصائص حضارة مصر في العهد الإقطاعي

تشمل هذه الفترة من تاريخ مصر عصر الإضمحلال الأول عقب سقوط الدولة القديمة (الأسرات ٨، ٩، ١٠) ثم الدولة الوسطى (الأسرتين ١١، ١٢).

إزدىاد نفوذ الأمراء: عمد ملوك الدولة القديمة إلى منح الإقطاعيات لكبار الموظفين. كما تغاضوا عن إجراء تنقلات بين موظفي الإدارات المحلية علاوة على سماحهم بمبدأ توارث وظيفة الحاكم. ولقد صارت هذه المنح – مع الزمن – حقا مكتسبًا، كما قد صاحب إزدياد نفوذ أمراء الأقاليم نقص واضح في سلطان الملك حتى لقد صار في النهاية رمزًا عاجزًا. ولقد كان الملك هو دعامة الحياة بكل مظاهرها فنشأ عن هذا الإنهيار في السلطة المركزية فوضى عامة في شتى مناحي الحياة.

ولقد أدت المنازعات بين أمراء الإقطاع على ما يبدو إلى ثورة مدمرة قلبت الأوضاع فإعتدى على حرمات المقابر، وأهملت الأرض وأنتشرت المجاعة وصار الغني في حال لا يتمناها المعدم. ومما زاد الحال سوءًا غارة أسيوية على الدلتا ويبدو أن الجنوب لم يصب من جرائها بخطر.

ولقد أستدعت هذه الحال من حكام المقاطعات زيادة الإعتماد على أنفسهم في تنظيم شئون مقاطعاتهم التي صارت أشبه بممالك صغيرة فصاروا يهتمون بتكوين جيش بشعرهم بالأمان، كما أخذوا يصلحون ما أفسدته الثورة فأهتموا بتحسين وسائل الري وتنظيم الإدارة المالية

المحلية، كما أشرفوا على القضاء. وإستكمالًا للمظاهر صار الواحد منهم كاهنًا أعظم في مقاطعته. بل وأضافوا الدعوات الملكية إلى أسمائهم كما أرخو الأحداث تبعًا لسني حكمهم. وبلغ الأمر منتهاه في إهناسيه وطيبه حيث قامت أسرتان ملكيتان، وبينما تمكنت إهناسية من الأسيوبين فطردتهم، عمل ملوك طبية على إكتساح إهناسية وتوحيد مصر وبهذا تبدأ الأسرة الحادية العاشرة.

ولقد عمل ملوكها على الحد من نفوذ أمراء الأقاليم فألغوا نظام توارث المناطق، وإن كانت بعض الأسر قد ظلت على قوما أعترافًا من الملوك بفضلها في مساعدتهم في حرب إهناسيه.

ولقد إستعادت بعض الأسرات القوية نفوذها في بداية الأسرة الثانية عشرة إذ أستعان مؤسس هذه الأسرة ببعض هذه الأسر في توطيد دعائم ملكه ولكنه عين من قبله موظفين إداريين لمراقبة أمراء الإقطاع كما أهتم بتحديد المقاطعات منعًا للمنافسة بين حكامها. ولما عاد نفوذهم يهدد سلطان الملكية، عهد ملوك النصف الثاني للأسرة الثانية عشرة بإدارة الأقسام الإدارية إلى موظفين تابعين للحكومة المركزية. وأخيرًا سدد سنوسرت الثالث ضربته القاضية فلم يعد لهم أي شأن. ولقد عمد إلى تكوين حرس ملكي ضمن به أن تكون له اليد العليا.

أما بعد فلقد ضعف الملوك في أواخر الأسرة الثانية عشرة وعادت البلاد تتفتت، وتوالت سلسلة من الإغتصابات وإدعاء الماء حتى دهم الهكسوس البلاد.

المقابر: (شكل ٧)

مقابر الأفراد:

١– بقي نظام المصطبة في جبانه منف

٢ – ساد القبر المنحوت في الصخر في المقاطعات إذ أخذ كل أمير يعد قبره في ولايته. وتتكون عادة من بهو ذي أساطين ومقصورة للقربان ثم بئر يؤدي إلى قبو الدفن. وأشتهرت بني حسن بمدخل المقبرة ذي الأساطين الرشيقة.

٣ – شاع في طيبه شكل الهرم الصغير من اللبن يعلو مقصورة محفورة في الصخر.

٤ – تميزت أبيدوس بالمقابر على شكل هرم صغير يعلو مصطبة من اللبن.

٥– الأثاث الجنازي يتكون عادة من تابوتين من الخشب وقد يكون أحدهما من الحجر، وبعض أواني فخارية، كما أخذت النماذج المجسمة تصاحب المناظر على الجدران وتمثل حياة الأمير في أعماله اليومية وأوقات لهوه.

٦– يلاحظ أن جدران توابيت هذه الفترة تغطيها كتابات ودعوات جنازية تسمى بنصوص التوابيت وكانت خاصة بأهرام الملوك.

مقابر الملوك: (١) حكم ملوك الأسرة الحادية عشرة من طيبة وفي برها الغربي كانت مقابرهم. وأشهرها مقبرة نمتوحتب في الدير البحري وهي تتكون من شرفتين ذوات أعمدة وأبهاء وقدس أقداس كلها محفورة في سفح الجبل ويعلوها هرم من اللبن وكانت حجرة الدفن في بطن الجبل. وهكذا جمعت المقبرة بين المعبد الجبازى والهرم.

٢- ملوك الأسرة الثانية عشرة أتخذوا إثت تاوي في مصر الوسطى عاصمة لهم، ودفنوا في جوار جبانات الدولة القديمة، فأتخذوا النظام التقليدي لملوك ذلك العصر أي الهرم والمعبد الجنازي ومعبد الوادي يوصل بينهما طريق صاعد. على أن الهرم كان من اللبن يغلفه كساء حجري، كما كان صغيرًا، ذلك أن أهرام الجيزة الضخمة لم تسلم من السرقة، ولهذا أيضًا تفننوا في إخفاء حجرة الدفن.

أوراق البردي: ومعظمها مخطوطات من الدولة الحديثة إذ أعتبر أدب الدولة الوسطى نموذجًا يدرس للنشئ ويعالج تراث هذه الحقبة مواضيع القصص والشعر ثم الطب والرياضة والدين.

أهميتها: ترجع أهميتها علاوة على قيمتها الأدبية واللغوية، إلى دلالة بعض نصوصها التاريخية، كما أنها تعكس لنا نفسية المصريين وطرق تفكيرهم بما تحويه من وصايا وحكم ومحاولات فلسفيه فقد كان الأدب المتنفس الوحيد لما أفعم القلوب المخلصة من ألم وأبتئاس أيام عصر الإضمحلال الأول وينحصر باقي تراثهم الأدبي في قصصهم وأشعارهم. أما مخلفاتهم العلمية فأهمها مؤلفاتهم في الطب والحساب

والهندسة والفلك مما يبين مدى تحصيلهم في هذه النواحي، كما عثر على مخلفات دينية تلقي بعض الضوء على معتقداتهم وطقوسهم وحفلاتهم الدينية والجنازية.

وهذا التراث على قلته يعطينا صورة واضحة لعادات وعقائد القدماء وطرق معيشتهم، ثم هو يشف عن نفسياتهم وأذواقهم وميولهم بما يكمل الصورة التي تمدنا بها آثارهم.

قصة سنوهي (المغامرات في آسيا): ولعل جاذبيتها تكمن في واقعيتها وخلوها من الخيال الجامح علاوة على أنها تلمس الجانب التاريخ لبداية الأسرة الثانية عشرة وسنوهي هذا أمير مصري تورط على ما يبدو في مؤامرة أو ما أشبه فما أن توفي الملك إمنمحات الأول وكان سنوهي آنئذ يحارب الليبيين مع ولي العهد حتى أخذ سبيله في عجلة إلى خارج مصر وعند الحدود الشمالية الشرقية غافل حراس القلعة وأتجه إلى مضارب البدو الذين أنقذوه من هلاك محقق في متاهة الصحراء وفي رتنو العليا أمضى سنوهي جل حياته بعد إذ تزوج من أبنة أميرها كما ولاه هذا الأمير حكم مقاطعة هامة على الحدود وسنوهي يذكر بإعتداد أن الأمير عرفه وأنه يعرف مزاياه مما يوحي بأنه لم يكن شخصًا مغمورًا، كما وأن الإهتمام الذي أبداه القوم بأخبار مصر، ثم المكانة التي نالها سنوهي تدل على مكانة مصر العالية في هذه النواحي.

ويذكر سنوهي كيف حارب مع الأمير، ثم هو يصف مبارزته مع بطل سوري وكيف قتله وأستولى على متاعه.

ولا يفتأ سنوهي يحن إلى مصر رغم إعتياده الحياة والعادات السورية. وأخيرًا يتصل بالملك فيعفو عنه ويأذن له بالعودة. ولقد أستقبله الملك وأفراد عائلته إستقبالًا حافلًا، كما كرم الملك شيخوخته فأهداه قبرًا مؤثثًا في جوار الحماية الملكية، وبهذا أمن سنوهي على حياته الأخرى، إذا كان المصري يخشى أن يدفن خارج مصر فيفوته نعيم الآخرة.

وأدب القصة لهو البلاغة المصرية في أررق صورها: جمل تقصر أو تطول حسب مقتضي مواقف القصة، ثم تحكم في الأسلوب في فصاحة متغيرة ورشاقة في إختيار الكلمات وموسيقى في تنغيم جرسها مما يسمو بهذه القصة على ما عداها من آداب المصريين القدماء.

قصة البحار الغريق (المغامرات البحرية): وهي أقصوصة خرافية أشبه ما تكون بمغامرات السندباد البحري. ومع هذا فيبدو أنه قصد بها أن تكون نصيحة لأمير كان قد أخفق في مهمة كلفه بها الملك، فيتولى وصيفه الترفيه عنه دون جدوى، فهو يرغب إلى سيده أن يبتهج، ثم يشرع في سرد قصته هو على سبيل العبرة.

ومؤداها أنه كان في عرض البحر حين هبت الريح صرصرا وأبتلعت جحافل الموج سفينته بمن فيها فلم ينج منها سواه. ولفظه البحر على ساحل جزيرة يسكنها ثعبان ضخم يحلى جسمه الذهب وحاجبيه اللازورد، وله لحية طولها ذراعان. ولقد تصادق الثعبان والملاح. وأخذ الثعبان يقص عليه ما جاز على أهله، فقد أحرقت نار من السماء أبنائه

وأقاربه ولم يبق سواه. ثم تنبأ للبحار بعودته إلى مصر. وفعلًا جاءته سفينة مصرية في الموعد المحدد فحملها بخيرات الجزيرة وكانت وافرة، وعاد بها لسيده الملك الذي رقاه وأنعم عليه.

ورغم هذا لم يزايل الأمير توجسه وفاه بحكمة حزينة: فمن ذا الذي يعطي الماء في الفجر الطير يذبح في الصباح؟

قصة خوفو والسحرة: – وهي مجموعة من القصص الشعبية التي يغرم بها الشعب، وإن كانت لا تخلو من دلالة تاريخية، إذ تفسر لنا كيف برر كهنة رع وصولهم إلى العرش وتكوين الأسرة الخامسة.

وتبدأ القصة بالملك خوفو جالسًا في قصره وقد أخذ منه السأم والإكتئاب كل ما أخذ، وخف إليه أبناؤه يزفهون عنه بأقاصيصهم. وتقدم خفرع فسرد على أبيه ما كان من أمر الملك نب كا والكاهن أوب إنر، إذ إعتادت زوجة الكاهن أن تستقبل عشيقًا لها في جوسق الحديقة. وبعد إذ يقضيا من الوقت ما شاءا. يغتسل الفتى في بحيرة الحديقة. وعلم أوب إنر بأمر هذه الزيارات الخفية، فشكل تمساحًا صغيرًا من الشمع، وأمر المشرف على الحديقة بإلقائه في البحيرة حالما ينزل إليها الفتى. وأنتهز أوب إنر فرصة زيارة الملك نب كا له في بيته فأصطحبه إلى البحيرة ليريه عجيبة فريدة. وأمر أوب إنر التمساح فخرج حيًا ضخمًا ولفظ الفتى وإذ ذاك عاد فأمره بأن يبتلعه من جديد، ثم مد يده وأمسك بالتمساح وأخرجه من الماء فإذا به تمساح الشمع الصغير. وحين علم أب كا بأمر خيانة زوجة الكاهن له أمر بها فأحرقت.

وإذ أنتهي خوفو من سماع القصة هلل هو ومن في مجلسه، وأمر بالتقدمات على روحي سلفه وكاهنه الساحر.

ونهض إذ ذاك الأمير باوفرع وشرع يتحدث عن أعجوبة حدثت في زمن الملك سنفرو، إذ شهر يومًا بابتثاس وهم، لم يفلح معهما ترفيه خلصائه، فأمر بالكاهن المقرئ جاجام عنخ فمثل بين يديه مشيرًا. ودبر له هذا نزهة في بحيرة الحديقة في موكب من الحسان بمسكن بالمجاديف ويرفلن في ثياب شفافة. وبينما هن في غنائهن، إذ سقطت حلية رئيسة صف من العذارى، فأنقطع الغناء، ولم يعدن يجدفن. وأصرت صاحبة الحلية على حليتها، ولم تجد معها وعود ولم ينقذ الموقف إلا حضور جاجام عنخ الذي ما أن تلا أقوال سحره حتى تجمعت المياه في ناحية واحدة، وأستعيدت بهذا الحلية.

وما أن سمع خوفو بهذا حتى تملكه العجب، وأمر بالقرابين تقدم على روحي أبيه العظيم وكاهنه البارع.

وهنا نصل إلى القصة ذات المغزى، إذ قام ددفرع وقال ما معناه أن العجائب التي سمع بها الملك حدثت في أزمان غابرة، فلا يمكن التأكد من صحتها. أما ددفرع فسيقدم لوالده أعجوبة تعيش في عصره بالذات. وحدثه بخبر ددي الذي يتبعه الأسد ذليلًا، ثم هو يعيد الرأس المقطوع إلى مكانه. وبالطبع كان شغف الملك برؤياه بحيث أمر بمثوله في الحال. وكان ددى يبلغ من عمره المديد مائة وعشر حولًا، يأكل خمسمائة رغيف بفخذ كامل، وبشرب إلى هذا مائة إناء من الجعة. وجاء

ددي وأخذ يمارس سحره أمام خوفو فذبح أوزة وباعد ما بين الرأس والجسد – وأذهل الحضور بالرأس يتحرك حتى يتخذ مكانه من جسد الأوزة، وقامت هذه تصيح. ويبدو أنه جيء له بأسد فصار يسير خلفه صاغرًا ومقوده على الأرض. وحينئذ سأله الملك عن أقفال معبد تحوت ليؤمن هرمه بأقفال على غرارها. إلا أن ددى أعتذر بأن هذا الأمر لن يستطيعه إلا الأبن الأكبر بين ثلاثة توائم تلدهم رددت زوجة كاهن رع، وأن هؤلاء الأطفال – وهم أبناء رع نفسه – سيتولون عرش مصر. وإذ جزع خوفو طمأنه ددى بأن هنا سيكون بعد إنقضاء مدة حكم حفيده.

وأمر رع الإلهات حتحور بحضور ولادة رددت، وحين كانا هن زوجها بقدر من الشعير خبأن فيه ثلاثة تيجان وتركن الغرائر بالمنزل. وحدث أن سمعت الخادمة أصوات موسيقى و غناء تصدر عن صوامع الغلال، وفكرت في إفشاء هذا السر، إلا أن رع دبر لها تمساحًا أفترسها.

قصة أوزيريس: – وهي في الحقيقة ملحمة دينية، نالت من الذيوع والإنتشار ما لم تنله أسطورة دينية أخرى. ويرجع إعتزاز الناس بها إلى أنها قصة إنسانية حافلة بالمواقف المحركة لشتى العواطف والإنفعالات. ولذيوعها بين الناس لم يكن من داع لتسجيلها، فجل ما وصلنا عنها كتابات بلوتارك الروماني، وإشارات متفرقة هنا وهناك لا تخلو من غرض بل ولبس أيضًا.

ويبدو أنه كانت هناك محاولات للتوفيق بين أسطورة أوزيريس هذه وقصة خلق العالم في مذهب عين شمس. وتقول هذه القصة أن رع كان

يحكم العالم قبل أن يكتمل خلقه. ثم لما شاخ وتندر عليه الناس، سلط عليهم الهلاك، ثم عاد وقنع بترك الأرض والعيش في السماء. وكانت السماء (نوت) تحتضن زوجها جب (الأرض)، وكان رع قد حرم عليهما الزواج وأمر بهما ففصلهما شو (الهواء)، ولكن بعد أن كانت نوت قد حملت سرًا بأربعة أطفال هم أوزيريس ونست؛ وإيزيس ونفتيس. وأعجب رع بأوزبريس ورضى به ملكًا لمصر وتزوج أوزيريس من إيزيس، كما تزوجت ست بنفتيس. وبينما أنجبت إيزيس، لم تخصب علاقة ست ونفيتس، فحقد ست على أوزيريس، خاصة بعد أن أتصلت به نفتيس وأنجبت منه طفلًا غير شرعي.

وأخذ أوزيريس وزوجته يعلمان الناس الزراعة والصناعة والبناء والنسيج والطحن والخبز وغير ذلك. كما أخذ أوزيريس يفتح العالم بالمحبة والعطف. وبينما أوزيريس في غيبته، دبر له أخوه المحنق مؤامرة مع أعوانه. فلما عاد أوزيريس أحتفل به ست، وأثناء الوليمة أمر بتابوت كبير بديع الصنع فأحضر، قائلًا أنه يهيه لمن تنطبق عليه مقاساته. وأخذ الحشور يجربون حتى جاء دور أوزيريس، فما أن رقد فيه حتى أحكموا غلقه ثم رموا به إلى النيل، وحمله التيار حتى البحر المتوسط، وركب متن الموج حتى وصل جبيل على الشاطئ السوري. وهناك أحتضنته شجرة ضخمة فأخفته وأعجب ملك جبيل بالشجرة وجعل منها عمودًا لقصره.

وفي تلك الأثناء كانت إيزيس جزعة تبحث عن جثة زوجها، وأستطاعت بسحرها أن تصل إليه وتحايلت حتى عادت به. وفي أحراش

الدلتا خبأته، وذهبت تسترجع أبنها حورس من مرضعته وحدث أن عثر ست على التابوت فما كان منه إلا أن قطع جثة أخيه إربًا، ثم بعثرها في أنحاء مصر. وهذا هو السبب في كثرة معابد أوزيريس المتفرقة. وأهمها معبد أبيدوس، إذ إعتقدوا أن الراس كان من نصيب هذه البلدة، ولما عادت إيزيس أخذت تجمع أجزاء الجثة حتى أكتملت ما عدا عضوًا واحدًا. وصارت تبكي على الجثة حتى أبتعثت فيها الحياة، ولكن أوزيريس أنف أن يملك في هذا العالم وفضل عليه ملك الآخرة.

أما أبنه حورس فقد كبر وهو يرى عمه الظالم يرتع في ملك أبيه، فلما بلغ أشده أشتبك مع عمه في مواقع كثيرة حتى أنهكت قواهما. وفي مجمع الآلهة في أون، أعلن أن حورس «صادق القول» ومستحق لعرش مصر.

ويبدو أنه كان للقصة معناها الرمزي أيضًا، فقد رأى فيها المصريون الصراع الدائم بين الجدب والخصب، ثم العراك بين الخير والشر، وفيه ينتصر الخير أخيرًا.

ولقد كان الملك يعتبر نفسه حورس الوريث المنتصر، حتى إذا مات صار ملكًا للعالم الآخر وتقمص شخصية أوزبريس. وبهذا فقد كانت عقيدة أوزيريس ملكية في بادئ أمرها. وحين عمت الفوضى عصر الإضمحلال الأول أغتصب الشعب لنفسه عقائد الملوك، فصار كل فرد بعد مماته يعتبر أنه أوزيريس نفسه. ومنذ ذلك الحين صارت عقيدة أوزيريس شعبية رائجة حتى نهاية تاريخ مصر القديم.

ولقد كان للقصة أهميتها في خلق الضمير الأخلاقي لدى المصريين، إذ كان من شروط دخول جنة أوزيريس، إتيان الفصائل في الحياة الدنيا.

وكان حورس يقود الميت إلى قاعة أوزيريس حيث يحف بالإله إثنان وأربعون قاضيًا ذوو أشكال غريبة، فينفي الميت أمامهم إثنتين وأربعين معصية. ثم يوزن قلبه مقابل ريشة ترمز للحق وإذ ذاك يعلن أنه صادق القول مبرر، فيحق له دخول جنات النعيم، وإلا أفترس أحشاءه وحش مخيف يقبع دائمًا في قاعة المحكمة.

ويمكن تلخيص أهمية قصة أوزيريس فيما يلي:

١- كانت قصة شعبية رائجة تركت آثارها في الأديان التي ظهرت بعد ذلك.

٢- تبين كيف تصور المصريون آلهتهم على أنهم بشر يتزوجون ويتخاصمون ويصطرعون.

٣- بلغ من شغف المصريين بها أنهم مثلوا أحداثها، فنشأ بهذا أقدم فن مسرحي.

٤- خلقت لدى المصريين الوازع الديني والرادع الأخلاقي طالما كان هناك ثواب وعقاب.

الأغاني والأناشيد: كان المصريون شعبًا مغرمًا بالمرح والغناء. ومنذ الدولة الوسطى وجدت أغان فيها آثار أوزان شعرية. وكان العامل يغني

وقت عمله والزارع في حقله وهناك أغان للمراكبية وأخرى للرعاة. وإكتفى في المناظر بذكر مطلع الأغنية إعتمادًا على أنها معروفة شائعة. ولقد وجدت بعض أغاني الحب في الأسرة التاسعة عشرة، وبعضها يرجع إنشاؤه إلى الدولة الوسطى وهي تمتاز برقتها وصدق عواطفها الساذجة.

ولقد ظهرت نغمة جديدة في الأغاني أيام عصر الفوضى والاضطراب، فإلى جانب النغمة المتشائمة التي تبدو في حديث نسو مع نفسه، وفيها يرغب عن الحياة ويتمنى الموت، شاعت أغنية العازف على القيثاره التي يحض فيها القوم على الإستمتاع بملذات الحياة، مادام الموت لاحقًا بهم في النهاية. ويذكر هيرودوث أن حفلات المصريين كانت تبدأ بخادم يحمل تمثال جثة محنطة، فيذكر القوم بالنهاية المحتومة، ليرتووا من كأس المناع قبل أن تفرغ..

أما الأناشيد فأغلبها مدائح للملوك، ودعوات للآلهة، تتلى في المعابد، وأثناء الحفلات الدينية بمصاحبة الموسيقى.

الإهتمام بالعلوم:

الطب: كانت التمائم والتعاويذ وسيلة المصريين الوقائية، ومن مخلفات هذه الحقبة بردية مها صيغ سحرية لحماية الأمهات الأطفال.

أما الطب بمعناه العلاجي فمن مؤلفاته برديتان وجدتا باللاهون من الأسرة الحادية عشرة تبحثان في أمراض النساء والطب البيطري، مما يدل على شيء من التخصص، وعلى إهتمامهم بهذين الفرعين من فروع

الطب على أنه أهم من هاتين ما عثر عليه من الأسرة الثامنة عشرة، وهو وإن كان يبين مدى تقدمهم في الطب والصيدلة حتى ذلك الوقت، إلا أنه يلاحظ على الوصفات أنها لم تتغير كثيرًا من عصر لآخر، كما كان الجديد يضاف إلى القديم بلا حذف.

وكانت الحالة تبدأ بإسم المرض، يتلوها الأعراض ثم شرح لها إذا لزم وأخيرًا تعليمات للطبيب مع ذكر الوصفة أو الوصفات اللازمة. وإلى جانب الأمراض المعروفة وردت حالات خاصة، علاوة على أمراض الجلد والعيون وحتى الشعر، وهناك وصفات مبيدة للحشرات، وتركيبات لعطور الملابس وبخور للمنازل، على أن أهم الأبواب كان يبحث في أمراض المعدة، وإن دراستنا لهذه البرديات تؤيد لدينا ما إشتهر به القدماء من براعة في الطب، فهناك حالات تمتاز بتشخيص دقيق وفهم صحيح لتركيب الجسم ومسببات علله.

وكان يزاول المهنة أطباء وكهنة وسحرة، وبعد فحص المريض يصدر الطبيب حكمه، فهو مرض يعالجه أو يقاومه أو لا يعالجه، ثم يشير بالدواء اللازم.

وكانت بعض الوصفات القديمة يصاحبها ملاحظات الأطباء السابقين، «فهذا دواء حقيقي» أو «جيد لقد رأيته» وكان معظمها–شأن الوصفات البلدية يتكون من نباتات نادرة، إذ رؤى توخي الغرابة والتعقيد في تركيب الدواء حتى يبدو مقنعًا، فهناك لزقة من ٣٧ مادة–كما عمدوا إلى إدخال بعض العناصر الحيوانية المثيرة الإشمئزاز، كدم الضب،

وإفراز الأذان وأجنحة الحشرات وهكذا.

الجراحة: إن إستقراء ما ورد في البرديات الطبية يدلنا على بعض معارف المصريين في علم وظائف الأعضاء، فالأوعية الدموية تخرج من القلب وتتوزع، حتى لتحس حركة القلب–أي النبض. حيثما وضعت يدك على عرق، ويبدو أن درايتهم في هذا الشأن ترجع إلى مدرستهم التحنيط من قديم، وما يستلزمه من تقطيع وتشريح، على أن هناك أدلة متفرقة على مزاولتهم الجراحة الفعلية، فبعض رسوم المقابر ترينا عملية الختان، وبعضها يبين بعض عمليات جراحية أو عمليات تجبير يقوم بها متخصصون، وكانت جراحاتهم–في الغالب–لا تتعدى البتر والكي والفتح، وقد يقوم الطبيب تخدير المريض قبل العملية، ولقد وجد فعلًا بعض أدواتهم الجراحية، كما يدل فحص جثثهم على آثار عمليات في الجمجمة.

الحساب والهندسة: رغم ما عرف عن المصريين من براعة محيرة في نواحي الهندسة المعمارية، من توجيه خطوط الهرم للجهات الأربع دون ما خطأ يذكر، وبناء الجدران المستقيمة تمامًا على زوايا قائمة، وفي توازيها دون أيما إخلال، إلى تدوير الأساطين في إستدارة منتظمة، فإن عملياتهم الحسابية ينقصها سرعة الحل، وتوخي الدقة، والطرق المبتكرة المنوعة، ففي بردية رياضية من عصر الهكسوس، تحل المسائل بطرق بدائية، فمثلًا حاصل 8x٨ يصل إليه الكاتب عن طريق التضعيف هكذا: ١:٨، ٢:١٦، ٤:٣٢، ٨:٦٤، أما في القسمة فالأمر جد عسير، إذ

يلجأون لطريقة التجربة إلى جانب هذا فقد كانوا يتغاضون عن الكسور الضئيلة، ويشك كثيرًا في تقدم وسائلهم هذه حتى نهاية تاريخهم.

الحكومة

أزالت الثورة الشعبية في نهاية الدولة القديمة الحالة الإلهية التي أحاطت بالملك، فصار بشرًا يعمل على صالح رعيته قبل أي شيء آخر. ولقد عمد ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى نقل العاصمة إلى اثت تاوي في مركز متوسط بين الشمال والجنوب كي يسهل عليهم الإشراف الفعلي على الوجهين–كما أخذوا يشركون أبناءهم معهم في الحكم حتى يأمنوا المؤامرات على العرش، وهذا أتيح لولي العهد دراية عملية بتصريف شئون الدولة. ولقد ظهرت في ذلك الوقت وظيفة «الإبن الملكي لكوش» أي نائب الملك في بلاد النوبة.

الإدارة المركزية: كان الملك يختار وزيرًا ينوب عنه في إدارة الحكومة وكان لمكتبه الإشراف على التجنيد وتسخير المال وفرض الضرائب وتسجيل الأراضي، وكان يعاونه حاملو الأختام الثلاثة، وتقابل إختصاصاتهم إختصاصات وزير الحربية والزراعة والداخلية.

كما كان الوزير رئيسًا للقضاء، ويترأس محكمة الستة، وقد حل محل رؤساء البعثات فيها ثلاثون عضوًا من عظاء الجنوب. كما كان حاكمًا العاصمة فكان يشرف على قوات البوليس فيها.

أما الإدارة المالية وإدارة الأشغال العامة فكان يقوم عليهما رئيسًا

بيتي المال، كما في الدولة القديمة.

الأقسام الإدارية: أعيد تقسيم مصر في الدولة الوسطى إلى عدد من المديريات تشملها منطقتين إداريتين: القسم الشمالي (الدلتا)، والقسم الجنوبي (الصعيد)، وكان الأخير ينقسم إلى الجنوب (مصر الوسطى) ورأس الجنوب (من طيبة حتى أسوان).

الإدارة المحلية: كان يقوم على القسم الإداري أمير أقطاعي، ثم أستعيض عنه بموظف يتبع الحكومة المركزية. وكان يختص بجمع الضرائب كما يجمع الجند والعمال لخدمة الملك.

وكان يتبع الحكومة المركزية والإقليمية على السواء جيش من الموظفين والكتبة بحيث يمكن إعتبار الحكومة المصرية في كل عصورها حكومة بيروقراطية، وذلك لما كان يتمتع به الكاتب من سطوه على الشعب مستمدة من مركزه العالي.

إحصاء السكان: كان رب الأسرة يقدم على فترات (ربما كل خمسة عشر سنة) تقاريرًا يعدد فيها أفراد عائلته وتعداد خدمه وأتباعه. ومن الطريف أنها كانت تشير إلى ما تتوقعه الأسرة من مواليد جدد. وكانت هذه التقارير تقدم إلى رؤساء القضاة العشرة للجنوب ثم تحفظ في مكتب الوزير، ويعتمد عليها الموظفون في تقدير الضرائب، كما كانت أساسًا لإختيار العمال للخدمة الجبرية وتجنيد الشبان للخدمة العسكرية.

إقامة الجسور والخزانات: أدت حالة الإضطراب في عصر

الإضمحلال الأول إلى انحطاط وسائل الري ففسدت القنوات، وردمت الترع، ولم تعد الأرض تغل بالقدر الذي يحفظ على الناس أرواحهم، فوقع عبء النهوض بشئون الزراعة على كامل ملوك الدولة الوسطى كي تستعيد البلاد إزدهارها ولقد حاولوا إستصلاح أراض جديدة كما حدث في إقليم الفيوم الذي كان عبارة عن منخفض تضيع فيه مياه بحر يوسف عن طريق شق في التلال المحيطة بالمنخفض. وفي هذا الموضع بني ملوك الأسرة الثانية عشرة سدًا ضخمًا ينظم عملية تصريف المياه إلى المنخفض أو منه. ولقد زار هيرودوت هذه المنطقة وأعجب بمشروعات إمنمحات الثالث العمرانية وخاصة قصر اللابرنث ذي الثلاثة آلاف حجرة.

ولقد كان إهتمام ملوك هذه الفترة بطرق القوافل وبالطرق إلى المناجم بالغًا حتى لقد حفروا الآبار على طولها كما بنوا خزانات المياه في جوف الصحراء.

أما الجسور فكانت من الطين، وقلما تكون من الحجر. وكانت تمتد على طول شاطئ النيل، كما تتعامد عليه وتوصل بين أجزاء القطر برًا.

مقياس النيل: ثبت إمنمحات الثالث في النوبة عند حصني سمنه وقمة مقياسين لمياه النيل، يتنبآن بمقدار الفيضان، فيمكن على هذا الأساس تقدير المحصول فالضريبة.

التجارة: ما أن إستقرت أحوال مصر في الدولة الوسطى حتى

إنتعشت مرافق البلاد. وأخذ القوم يمارسون تجارتهم الداخلية في أسواق المدن والقرى بطريقة لا تختلف عما كان متبعًا في الدولة القديمة، فالمقايضة كانت أساس معاملاتهم كما يبدو أنهم إستخدموا في صفقاتهم الكبيرة وحدات من المعادن الثمينة وإن كنا لم تتحقق من هذا تمامًا، ولم تظهر القطع الذهبية النقدية إلا في الدولة الحديثة. وقد إبتكر إمنمحات الثالث موازين نحاسية علاوة على ما كان معروفا لديهم من مكاييل.

أما التجارة الخارجية فقد لقيت إهتمامًا زائدًا فإستؤنفت التجارة مع ببلوس وسوريا وبنيت الحصون على الحدود الشرقية لتأمين طرق القوافل كما زودت هذه الطرق بالآبار وكان أهمها طريق قفط البحر الأحمر وعن طريقه كانت البعثات التجارية تبحر إلى بونت، كما شق سنوسرت الثالث قناة توصل خليج السويس بالفرع الشرقي للنيل فلم تعد المتاجر تنقل برًا عبر الصحراء الشرقية.

ويبدو إلى هذا أنه كانت لمصر علاقات تجارية مع جزر البحر المتوسط وخاصة كريت. أما الجنوب فقد لقى عناية خاصة إذ حطم ملوك الدولة الوسطى قوة كوش والزنوج، وإبتنى سنوسرت الثالث حصنين عند سمنه وقمه ثم ثالثًا في جزيرة جنوبي سمنه لتأمين حدود مصر الجنوبية وكذا لحراسة طرق التجارة إلى الجنوب: ولتسهيل ورود الأساطيل الحربية والتجارية على السواء أعاد سنوسرت الثالث شق الترعة التي كان قد شقها أوني من الأسرة السادسة في صخور الشلال الأول وسماها (طريق سيزوستريس الجميل).

تكوين جيش قائم: إستعان ملوك الدولة القديمة بحكام الأقاليم في جمع الجيوش وقيادتها حين يقترب شبح الحرب. وفي عهد الإضمحلال أخذ كل أمير يجهز فرقًا محلية تذود عن إستقلاله–وفي عهد الدولة الوسطى عاد نظام التجنيد إلى ما كان عليه في الدولة القديمة فكان حكام الأقاليم يزودون الملك بما يحتاجه من جند لغزواته. ولقد أختفت الفرق الخاصة بحكام الأقاليم، كما كون سنوسرت الثالث الذي قضى نهائيًا على نفوذ أمراء الأقاليم، كون حرسًا ملكيًا من الضباط الممتازين يسمون (أتباع الملك) وكان هذا أول جيش ملكي ثابت ولكن كان بجانبه قوات البوليس والحاميات التي تسكن القلاع والحصون على الحدود وفي أوقات السلم كان الجنود العاديون يستخدمون في الأشغال العامة، ويزعم هيرودوث أن الملك كان يقطع الجندي أرضًا يعيش فيها تبلغ مساحتها سبعة أفدنة.

الحصون: أخذ أمراء الإقطاع يحصنون مدنهم ويحيطونها بأسوار وذلك لصد عدوان جيرانهم، وبعد طرد الأسيويين من الدلتا قام ملوك أهناسية بإنشاء سلسلة من القلاع على الحدود الشمالية الشرقية وأخذ ملوك الأسرة الثانية عشرة يبنون الحصون الجديدة ويعيدون بناء ما تهدم منها بهمة ملحوظة فلقد إهتم إمنمحات الأول بإعادة بناء حصن سنفرو المسمى بجدار الحاكم على الحدود الشمالية الشرقية كما أنشغل سنوسرت الثالث بالنوبه، وعند الشلال الثالث إبتنى حصني سمنه وقمه ثم حصنًا ثالثًا في جزيرة جنوبي سمنه الغرض منها جميعًا وقف تقدم الزنوج شمالًا، وحماية الطرق إلى مناجم الذهب، وتأمين طرق القوافل

التجارية. وكان حصن سمنه على مرتفع يطل على النيل وله أبراج يشغلها الحراس الساهرون في نوبتهم، كما كانت الصخور التي أقيم عليها عائقًا لهجوم الأعداء إن وجد.

سقوط العصر الأقطاعي: أعتمد ملوك الأسرة الثانية عشرة على موظفين يديرون الأقاليم، كما عمدوا إلى تكوين جيش عامل ضخم؛ فكونوا طبقة أرستوقراطية وأخرى حربية على التوالي فما أن أنتاب الملوك الضعف حتى قام الحزبان بسلسلة مؤامرات تبادلا فيها العرش فعمت الفوضى ونشبت حروب أهلية، وعادت البلاد فإنقسمت إلى ممالك صغيرة، كان أظهرها ملوك الأسرة الثالثة عشرة الذين حكموا من طيبة والأسرة الرابعة عشرة التي إستقرت في سخا في الدلتا.

غزو الهكسوس: حين إندفعت موجة الآريين فتغلبت على بابل، وإستقرت في ميتاني وخيتا، ضغطت هذه الهجرة على شعوب آسيا الدنيا، فزحفت إلى مصر جموع سامية إختلط بها بعض من الجنس الآري الغازي، وإستقروا في شرق الدلتا هونًا ما، وعاصروا أواخر الأسرة الثالثة عشرة وملوك الأسرة الرابعة عشرة. ثم نظموا صفوفهم وإنتشروا في الدلتا حتى منف دون عقبات، فقد كانت مصر مهيضة الجناح «ولم يكن للبلاد ملك» كما كانت لهم غلبة السلاح إن لم يكن العدد أيضًا، إذ إستعملوا خيولًا وعربات وسيوفًا من حديد. ولقد إقترنت غارتهم بتخريب واسع النطاق، وتدنيس لكل ما هو مقدس وإنساني، فهدموا المعابد، وقتلوا الشيوخ والأطفال، وإستعبدوا صفوة الشباب؛ مما ترك آثاره في الأدب،

وظلت ذكراه المريرة ماثلة في أذهان المصريين طوال تاريخهم.

أما لفظة الهكسوس فيبدو أن تفسيرها بملوك الرعاة فيه خطأ واضح، وأصح منه «حكام البلاد الأجنبية».

ولقد إتخذ الغزاة من أواريس في شرق الدلتا عاصمة لهم. وسرعان ما أثرت فيهم الحضارة المصرية، فعبدوا ست وغيره إلى جانب آلهتهم كما تمصروا في لغتهم وعاداتهم وحتى أسمائهم. ولم يمتد تقدمهم إلى أبعد من الدلتا. ويبدو أنهم وصلوا قبيل خروجهم حتى جبلين في الوجه القبلي، ومع هذا فقد دفعت مصر كلها الجزية.

ولقد سمحوا لبعض المالك الصغيرة بالإستمرار، وعمدت أحداها وهي مملكة طيبة–إلى لم شعث ما تمزق منها، فكونت جيشًا مجهزًا بأسلحة حديثة، ثم قادت حربًا مريرة مع الغزاة، إنتهت بطردهم من مصر. وهناك أسطورة عن الملك أبوفيس ملك الهكسوس تشير إلى بداية النزاع، فقد تحرش هذا بملك طيبه وزعم أن أفراس بحيرة طيبة تعكر عليه صفو منامه في أواريس. وكانت هذه الإشارة على ما يبدو الشرارة الأولى التي أضرمت نار حرب التحرير. ولقد تناقل شعلتها ملوك أواخر الأسرة السابعة عشرة الذين كان عليهم أن يحاربوا في جبهتين. الداخل الممزق، ثم العدو المشترك، ولقد خلدت هذه الحرب أسماء الملوك سقننرع وكاموزا ثم أحمس محرر مصر.

سادسًا-حضارة مصر في عهد الإمبراطورية

طيبة: -(شكل ٨) لم تشتهر طيبة إلا إبتداء من الأسرة الحادية عشرة إذ إتخذها ملوكها عاصمة لهم. ومنذ ذلك الحين أخذ نجم آمون في الإرتفاع. وكان آمون أحد آلهة الأشمونين الثمانية. ولقد إنتقل ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى إلى إثت تاوي، ومع هذا ظلت طيبة عاصمتهم الدينية، وفيها بنوا معبدًا لآمون، أضيف عليه فيما بعد حتى صار هو الكرنك الفخم الشهير.

وإزدادت أهمية طيبة بعد غزوة الهكسوس، فقد إتخذها محررو مصر عاصمة لهم، كما إعتبروا آمون صاحب الفضل الأول والأخير في طرد الغاصبين. وأخذ ملوك الأسرة الثامنة عشرة يتوسعون في مد نفوذ مصر على دويلات آسيا والسودان، وتدفقت الخيرات على عاصمة الإمبراطورية، وخص الملوك آمون، الذي يتم النصر لهم بإسمه، بجانب كبير من إيراد الإمبراطورية، وأخذ كل منهم يتفنن في تزيين معبده والإضافة عليه، حتى صار أضخم وأغنى معبد في العالم القديم. ولقد زاد ثراء ونفوذ كهنته تبعًا لذلك، حتى لقد فكر إخناتون في ثورته الدينية وهجر طيبة. ثم ما لبثت البلاد أن عادت سيرتها الأولى، بل وغالى الملوك في التقرب لآمون وكهنته، حتى لقد توصل هؤلاء للعرش وكونوا الأسرة الحادية والعشرين.

آثارها: -بلغت المدينة أوج عظمتها في الدولة الحديثة مما يليق بإمبراطورية مصر الشاسعة..وكان معبد الكرنك أهم آثارها، شاسعًا ممتدًا

تتخلل أفنيته أبراج ذات أعلام سامقة. ويليه في الفخامة معبد الأقصر بهندسته الرشيقة. ويرتفع من كل هذا مسلات متسامية في عنان السماء. وكان يحيط بهذا أبنية القصر الملكي ودواوين الحكومة ثم قصور القوم ومساكنهم. وفي البر الغربي حفر الملوك مقابرهم في وادي الملوك، وإبتنوا على حافة الوادي معابدهم الجنازية، ومن أشهرها معبد حتشبسوت المحفور في صخور الدير البحري على ثلاثة شرفات ذوات أعمدة، وطرازه مأخوذ من معبد منتوحتب السابق الذكر (شكل ٧) ثم الرمسيوم لرمسيس الثاني، وكان معبد أمنحتب الثالث من أجملها. وإلى جانب هذا مقابر عظماء الأفراد مشهورة في الصخر ما إشتملت عليه من روائع النقش والرسم والتصوير.

تطور الحضارة: –الحضارة المصرية في كل عصورها إنعكاس صادق للأحوال السياسية والإجتماعية والدينية. ولقد كان للتأثيرات الآتية شأن ملحوظ في تطور الحضارة في عصر الدولة الحديثة: –

١– عادت البلاد تستأنف مظاهر نشاطها الحضاري وترقي به مدارج التقدم بعد طرد الهكسوس.

٢– إتسعت حدود مصر بتكوين الإمبراطورية، مما كان له أثاره التالية:–

(أ) تدفقت الثروة وعم الرخاء، فإتسمت الحضارة بطابع الترف.

(ب) إتصل المصريون بجيرانهم فتأثرت حضارة مصر بحضاراتهم كما أثرت فيها.

(ج) إتسع أفق التفكير المصري فتغيرت نظرة المصريين لعقائدهم، مما حبب إليهم التجديد والإبتكار.

٣- ولقد غالى إخناتون في ثورته الدينية والفنية، وما أن أفل نجمه حتى عاد المصريون يغالون في الرجوع للقديم. وكان لهذه الهزة أثرها، مضافًا إليها الضعف السياسي والإجتماعي والإقتصادي، فإنهارت الحضارة المصرية الحية بعد الأسرة العشرين، وإن بقيت مظاهرها جافة سقيمة.

المعابد: تكون معابد الدولة الحديثة الصورة الفاخرة التي تحتفظ بها مخيلتنا لمعابد مصر القديمة، فقد بلغت ذروة تطورها من حيث الهندسة والبناء. ويتكون المعبد عادة من مدخل على شكل صرح ذي برجين، ترتفع منهما الأعلام، وتتقدمهما المسلات والتماثيل. ويؤدي إلى فناء مكشوف لعامة الشعب، ثم صالة ضخمة الأعمدة، فقدس الأقداس، وهو أظلم أجزاء المعبد، وفيه يحفظ تمثال الإله. ويحيط بهذا كله مخازن ومساكن للكهنة، ثم سور. ويلاحظ أن هذا الطراز ساد أيضًا في معابد الملوك الجنازية. ولقد إنفرد الكرنك بالإضافات المستمرة فلا إستطاع تمييز طراز معين له.

ولقد عمد بعض الملوك إلى حفر معابد الآلهة في الصخر، ومن أمثلتها معبد أبو سنبل لرمسيس الثاني في النوبة، بتماثله الهائلة المحفورة في الصخر.

المسلات: وأقدم أمثلتها مسلة معبد أبو صير من الأسرة الخامسة، وكانت بمثابة رمز لرع، قصيرة غليظة تعلو قاعدة مرتعفه، وكلها من اللبن. وكانت هناك مسلتان أمام معبد رع في عين شمس من الدولة الوسطى بقيت إحداهما. أما في الدولة الحديثة فقد صارت عنصرًا معماريًا هامًا، وكانت كتله واحدة من الجرانيت طويلة مسلوبة، تنتهي بشكل هرمي، مغطى بصفائح ذهبية، وتعكس أشعة الشمس، وعلى أسطحها صفوف من الكتابة الهيروغليفية.

ويظهر أن الأصل في فكرتها عمود ينتهي بشكل هرمي، يقام في معبد الشمس البدائي ويرسم يعلوه طائر يرمز للشمس.

وأطول مسلة عثر عليها يبلغ إرتفاعها**٣٧** مترًا، مما يعطينا فكرة عن صعوبة تعلمها من المحجر ونقلها ثم تنصيبها بأدوات بدائية. فكان القطع بكور من حجر صلب، أما النقل فعلى مراكب خاصة، وإن كانت النظريات تضارب بشأن نقلها برًا.

المقابر: إنتشرت مقابر الملوك والأفراد في بر طيبة الغربي حتى بعد أن إنتقلت العاصمة إلى بر رمسو في الأسرة التاسعة عشرة.

مقابر الأفراد: وكلها محفورة في الصخر. وتكون عادة من مدخل يواجه الشرق يؤدى إلى ردهة تجري شمالًا وجنوبًا ثم دهليز عمودي عليها. قد ينتهي بمقصورة ويتقدم هذا كله فناء كما يعلو المقبرة هرم صغير من اللبن.

مقابر الملوك: لم تعد مقابرهم أعلى شكل الهرم، إنما نقروها في صخور وادي الملوك، وأخفوان مداخلها، كما باعدوا بينها وبين المعبد الجنازي حتى تسلم من النهب. وفي الأسرة الثامنة عشرة كانت المقبرة تتألف من سلم ثم ممر مستطيل، وردهة مربعة تؤدي إلى حجرة الدفن. ولم تكن المقبرة على إستقامة واحدة.

أما في الأسرة التاسعة عشرة فقد إستقامت أجزاؤها. وربما كان لمقبرة إخناتون في تل العمارنة أثرها في هذه الناحية، إذ كانت مستقيمة بحيث تسمح لأشعة أتون بإختراقها.

وكان يراعي في مقابر الملوك أن تتسع للأثاث الجنازي الفاخر، وأن تكفي جدرانها لتصوير وكتابة أدعية للشمس وعدة كتب دينية، تثقف الملك بأسرار الرحلة إلى العالم الآخر.

أما الأثاث الجنازي فيكفي لتصور عظمته زيارة آثار توت عنخ آمون الزاخرة الفاخرة.

إستخدام الخيل في الحروب: أول إشارة إلى إستخدامها في الحروب كان أيام أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة. ولقد دخلت مصر مع الهكسوس، ثم صار سلاح الفرسان السلاح الرئيسي في الجيش. ولم يحاول المصري ركوب الخيل كثيرًا، ربما لإعتبارات دينية أو لصغر حجمها، ومع هذا فهناك حالات شاذة فقد إضطر رجال مرنبتاح مثلًا لمطاردة الليبيين على ظهور الخيل. أما الإستعمال العام فكان يربط

الجياد في مركبات تندفع بالمئات فتفتك بصفوف العدو. وكان هذا التكتيك من إبتكار القواد المصريين. وكانت المركبات تصنع من الخشب وتبطن بالجلد، والفاخرة منها تصفح بالذهب، وكان للعربة سائق ومحارب بالقوس والحربة. ويلاحظ أن الحيثين والآشوريين كانوا يزودون المركبة بجندي ثالث يحمل ترسًا لحماية السائق وزميله.

وكان الملك الأجنبي يبعث بتحياته لخيول الملك بعد سلامه على أهل بيته، مما يدل على أهميتها، إذ لها إدارات كبيرة، كما أن سائق العربة كان يعتبر ضابطًا، بل إن سائق عربة الملك كان أحيانًا إبن الملك نفسه.

تكوين الامبراطورية

أسباب تكوينها:

١- رأى أحمس أن يتعقب المكسوس فيشتتهم ويأمن شرهم.

٢- إقترنت حرب التحرير بتأجج الحماس الوطني، مما كان عونًا للملوك في السير بسياسة الفتح قدمًا.

٣- كان في الإستيلاء على كنعان وسوريا تأمين حدود مصر من الميتاني والحيثيين.

٤- للحرب مزاياها بما تجلب من غنائم وجزية.

خطوات تكوينها :

١- بدأ أحمس بحملات في النوبة وفلسطين.

٢- سار خلفاؤه على سياسته حتى وصلت حدود الإمبراطورية أيام تحتمس الأول من الشلال الثالث حتى الفرات.

٣- ولكن الأمم المغلوبة لا تفتأ تحاول الإنفصال ما إستلزم توالي الحملات.

٤- إقترن إسم تحتمس الثالث بأكبر فخر حربي ناله ملك مصري إذ قام بسبعة حشرة حملة، إنتهت بتحطم دولة الميتاني، كما أرسلت له

بابل وأشور وخيتا (الحيثيين) الجزية بعد إذ أفزعتها قوته الطاحنة، و لقد إتبع سياسة رشيدة، إذ ربى أبناء حكام دويلات الإمبراطورية في القصر الملكي مع أبنائه، فكانوا خير عون في بقاء الإمبراطورية فيما بعد، ولقد إمتدت حدود مصر في عهده من الفرات حتى الشلال الرابع.

٥- لم يتوانى الفراعنة عن زيارة آسيا والنوبة في حملات تفتيشية، ولقد عقدت ميتاني المحالفات مع ملوك مصر، كما تزوج هؤلاء من أميرات ميتانيات.

ضياع الإمبراطورية:

١- أنغمس أمنحتب الثالث في ملذاته، وأهمل زيارة آسيا، فضاعت هيبة مصر، وأخذت أجزاء الإمبراطورية في الإنسلاخ.

٢- كما إهتم إبنه أمنحتب الرابع بالتفكير الديني دون ما عداه، وصاحب هذا مؤامرات الحيثيين والخبير والتي إنتهت بضياع أملاك مصر، كما يتضح من مراسلات تل العمارنة.

٣- أخذ ملوك أواخر الأسرة الثامنة عشرة ينظمون الأداة الحكومية بعد أن تسببت ثورة إخناتون الدينية في فساد الإدارة.

إعادة تكوين الإمبراطورية :-

١- بدأ هذا في الأسرة التاسعة عشرة، وأبرز ملوكها من الناحية الحربية

رمسيس الثاني، الذي إصطدم بالحيثيين في قادش. ولقد قام مالك الحيثيين بخدعة حربية، إذ إستعان بجواسيسه في تضليل رمسيس، الذي كاد يفقد حياته، وإن لم يفقد شجاعته.

٢- بعد سلسلة من الحروب عقدت معاهدة بين رمسيس وملك الحيثيين، إتفق فيها على حدود جديدة، إنتقصت من أملاك مصر في سوريا. وهذه المعاهدة أقدم ما عثر عليه في تاريخ الدول القديمة. وتزوج رمسيس من إبنة ملك الحيثيين.

ضعف مصر:- أخذت مصر بعدئذ بسياسة الدفاع، فكافح ملوكها موجات شعوب البحر والليبيين، كما أخذت أطراف الإمبراطورية تثور، ولقد بدأ النذير بشيخوخة مصر، ولم تكن محاولات الملوك مجدية بأي حال، كما لم تفلح مصر على طول الخط في صد غزوات الطامعين، فمر بتاريخها ملوك الليبيين والنوبيين وأشور وبابل ثم الفرس والإغريق فالرومان.

الأسطول: كان هناك أسطول تجاري وآخر حربي علاوة على مراكب النقل واليخوت، وأهم مناظر الأسطول التجاري، الرحلة الشهيرة إلى بنت (الصومال والشاطئ الآسيوي المقابل) المصورة على جدران معبد حتشبسوت في الدير البحري ولقد عادت البعثة بالبخور لآمون وبكل غريب وطريف من قرود ونسانيس وما أشبه وبنباتات وأشجار زرعتها الملكة في فناء معبدها ليكون قطعة من بونت أرض الآلهة.

ولقد مثل الفنان الحياة في بونت، فالأكوخ مقامة على أعمدة يحوطها النخيل، كما لم تنقضه روح المرح و هو يرسم ملكة بونت المترهلة فأرسلها عليها قفشة بارعة وأبدع أيما إبداع في تسجيل تفاصيل الحياة الحيوانية والمائية بحيث أمكن التعرف على أنواعها.

وهناك منظر يمثل السفن الملكية النيلية تنقل مسلتي الملكة، وقد قطعتا ونقلتا في ستة أشهر.

ولقد وردت مناظر عظيمة الأهمية في معبد هابو لرمسيس الثالث، تصور أقدم معركة بحرية ضد شعوب البحر. وفيها نرى طريقة المصريين في قال البحر، فقد إعتلوا الصواري، وأخذوا يمطرون الأعداء وابلًا من سهامهم، ولم يلبثوا أن قلبوا سفن الأعداء فتم لهم النصر.

العمارة وخصائصها:

مؤثرات خاصة:

١- توحدت البلاد وإستقرت أمورها بعد طرد الهكسوس، إهتم الملوك بتعمير، وبناء المنشآت الكثيرة العدد.

٢- لعب الدين دوره في هذا السبيل، إذ أخذ الملوك يتبارون في إظهار عرفانهم لآمون، إله التحرير وصاحب الفضل في نصر الملوك، فكانت المعابد شاهدًا على جنون العظمة الذي تولى فراعنة الدولة الحديثة.

٣- خرجت مصر خارج حدودها، فتأثرت بفنون جيرانها، بل لقد إستعانت بفناني هذه الأمم، ما أظهر أثره في بناء الحصون والقصور خاصة.

٤- كما إزداد ثراء الدولة، فتميزت العمائر بالضخامة الرائعة، والزخرفة المترفة الأنيقة.

خصائص العمارة:

١- حافظت على التقاليد القديمة لفن البناء، كالجدران المائلة والإستغناء عن الأساس وصقل الجدران والسقوف بعد البناء وغير ذلك، وكذا التفاصيل المعمارية كالكورنيش وحزمة النبات والأفاريز وغيرها، وإستمرار تقليد النبات في الحجر كالأعمدة التي تقلد البردي أو اللوتس.

٢- ومع هذا ظهرت عناصر جديدة مثل البوابات ذات الصروح والأبراج كما نلاحظ كثرة التماثيل أمام المعابد وفي مقدمة الأبنية.

٣- تقرر طراز المعبد المكون من بوابة وفناء وقاعة أساطين فقدس الأقداس.

٤- نحتت المقابر كلها في الصخر، كما أغرم بعض الملوك بنقر المعابد في الجبل أيضًا.

هذا ويلاحظ أن عمارة الأسرة الثامنة عشرة تمتاز برشاقتها وخفتها

وإنسجام نسبها، ومن أمثلة ذلك أساطين معبد الأقصر لأمنحتب الثالث فالأساطين تمثل تفاصيل نبات البردي بصدق، كما تتسق مع المحيط الذي أنشئت فيه.

وعلى العكس من هذا عمد ملوك الأسرة التاسعة عشرة إلى تغليب الضخامة المطلقة التعبير عن العظمة، فأساطين رمسيس الثاني في الكرنك تكون غابة مزدحمة، روعي فيها النسب المغالي فيها، كما إستغنى الفنان عن تمثيل تفاصيل الأصل النباتي للأسطون مما يدل على إنحطاط نسبي في الذوق الفني.

النحت والتصوير: كان للمؤثرات السابقة أثرها في النحت والتصوير، كما أثرت في العمارة. فالطابع الديني للفنون، والرخاء، وإتصال مصر بجيرانها وتأثرها بهم ثم إتساع أفق المصريين، كل هذا أخذ يضفي على الفنون جمالًا ورقة، لم تعهدهما الفنون من قبل. ورغم هذا سارت الفنون في الحدود القديمة، فالتماثيل في أوضاعها التقليدية، والمناظر في مستطيلات، ويرسم الأشخاص من أمام والوجه من الجانب وما إلى ذلك.

وفي بداية الأسرة الثامنة عشرة لم تفترق التماثيل والنقوش كثيرًا عن الدولة الوسطى. ولقد أخذت التأثيرات السابقة طريقها تدريجيًا، حتى بلغت الفنون منتهى تطورها في عهد أمنحتب الثالث، فقد لانت الخطوط وإستدارت في سحر، كما أخذ الفنان يعني بتمثيل التفاصيل الدقيقة كتمثيل ترجيل الشعر والحلى وثنيات الملابس الشفافة وغير ذلك. علاوة على هذا دخل على التماثيل والمناظر عامل جديد هو محاولة

تسجيل المشاعر الداخلية، وإنعكاساتها على الملامح، وأثرها في الجسم. كما ظهرت مواضيع جديدة في التصوير، مثل مناظر ورود الجزية، وإستعراض الجند ورحلات الصيد في المركبات ذات الخيول والمآدب الفاخرة وما أشبه (شكل ١١).

أمنحتب الثالث: بلغت مصر قمة مجدها في عهد الأسرة الثامنة عشرة، ويعتبر عصر الملك أمنحتب الثالك ذروة هذا المجد في نواحي السياسة والإجتماع والفن. فلقد ورث هذا الملك من أسلافه إمبراطورية شاسعة، كونتها سواعد تحتمس الأول والثالث وأمنحتب الثاني وغيرهم. ولقد تميز عهده بسلام دائم لم يعكر صفوه ثورة أو عصيان، وأخذت الجزية والهدايا تتدفق على خزانة الدولة بوفرة لا تنقطع، فعم البذخ الحياة بكل مظاهرها، وصار الإسراف والترف مبدأ قرره الملك بنفسه، فلقد عاش عيشة تنعم وخمول يحيط به السراري والجوارى والزوجات، حتى لقد لقب بسلطان مصر القديمة.

وكان من أشهر زوجاته إبنة ملك الميثاني التي أتت ومعها ٣١٧ وصيفة. ويبدو أن زواجه بها كان زواجًا سياسيًا، فقد عمد إلى توطيد علاقاته مع جيرانه بهذه الطريقة. على أن زوجته المفضلة كانت «تي»– من عامة الشعب–فهي التي تظهر معه في النقوش والتماثيل. ولقد إبتنى لها قصرًا حافلًا بالبر الغربي لطيبة، وحفر له بحيرة واسعة للنزهة، كما بنى لها معبد تمجيدًا لها.

وأهم ما يمتاز به عهد هذا الملك أن الفنون بلغت أقصى ما كان

يرجى لها من رقي فسادت الخطوط اللينة الحساسة، ونحى الفنان ناحية القرب من الطبيعة وتقليدها بإتقان، وعمد إلى التعبير عن الإنعكاسات النفسية، وأثر الترف أو السقي في الجسم. كما حاول إدخال بعض التعديلات على الطرق المتوارثة. وكان هذا كله نتيجة الترف من ناحية وإنتشار الأفكار التقدمية من ناحية أخرى مما مهد لثورة إبنه اخناتون الدينية والفنية معًا.

ولقد كان الملك بناء نشيطًا. ومن أشهر عمائره معبد الأقصر بطيبة، ويمتاز برشاقته وإنسجام أجزائه. ولقد كانت جدرانه مغطاة بالإلكتروم (خليط الذهب والفضة)، وأعلام صرحيه «تختلط بنجوم السماء». ويبدو أنه بناه لإرضاء كهنة آمون، كما سجل على جدرانه قصة مصورة عن ولادته من أمه ومن صلب الإله آمون مباشرة.

أما معبده الجنازي فقد إندثر، ولم يبق منه سوى التمثالين الضخمين المعروفين بتمثالي ممنون.

ولقد سلم أمنحتب الثالث لإبنه تركة مثقلة، فقد كان خاملًا كما ذكرنا، فلم يخرج لزيارة ولاياته الأسيوية مرة واحدة. ولعل المظهر الوحيد لنشاطه هو ممارسة صيد الأسود والثيران، فقد صاد منها رقمًا خياليًا، على أنه لم يلبث أن أقلع عن هذه الرياضة وإستغرقته حياة الحريم.

وبدأت في أواخر عهده دسائس الحيثيين في سوريا، وقبائل الخبيرو في فلسطين، علاوة على أن هيبة مصر كانت في سبيل الضياع بسبب

إهمال الملك التفتيش على أطراف الإمبراطورية، مما إنتقص منها، ومهد لضياعها على يد إبنه الفيلسوف المتدين.

الديانة: كنتيجة لإتصال مصر بالشعوب الأجنبية، دخلت آلهه أجنبية على الديانه المصرية مثل بعل وعشتروت وبس وغيرها.

ولقد إتسعت المذاهب الخاصة بالعالم الآخر وتعقدت بحيث تبدو لنا متناقضة صعبة التأويل، فالرحلة إلى العالم الآخر تحيط بها المخاطر، وهم يلحقون بموكب الشمس، فيجوب بهم السماء نهارًا، ثم ينحدر بهم إلى مفاوز العالم السفلي ليلًا. وهو مليء بكل مخيف ومرعب من أرواح وشياطين ذات أشكال مفزعة. إلى ثعابين ضخمة تحرس أبواب العالم السفلي، ولا تسمح لكائن بالمرور إلا إذا كان مزودًا بصيغ سحرية خاصة. وقد كان الميت يحرص على أن يشتمل عتاده الجنازي على لفائف من البردي تفتح أمامه مغاليق النعيم، مثل كتاب الخروج من القبر نهارًا، وكتاب الأبواب، وما في العالم السفلي وغير ذلك.

وإزداد أيضًا شيوع عقيدة محاكمة الميت أمام أوزيريس، وصار يوضع في مكان القلب من الجثة جعران، يرجو فيه صاحبه أن لا يخونه قلبه فيفشي شروره أمام أوزيريس.

أما حقول الجنان فدونها بحر يعبر، وكان صاحب القارب يسير به ووجهه في قفاه، ويحتاج لإغراء كثير حتى يتطوع بنقل الميت. وكان للترف أثره هنا، فقد صار المصري يأنف من العمل في حقول النعيم،

فكان أثاث المقبرة يحتوي على تماثيل صغيرة، قصد بها أن تقوم بنقل الرمال وزراعة الأرض نيابة عن المتوفي.

وفيما يتعلق بطقوس الدين فقد كان يقوم بها الكهنة كل في وظيفته، وتنحصر في طقوس يومية، تتخلص في تزيين تمثال الإله وإلباسه وتعطيره ثم تقديم القربان له. وكانت هناك إحتفالات دينية تقام في مواعيد خاصة مثل الإحتفال الذي كان يسير فيها موكب آمون من الكرنك إلى الأقصر.

أما الطقوس الجنازية فقد قصد بها مغزى خاص، فقد كانت تقام الجثة طقوس رمزية ينطق خلالها بعبارات قصد بها إلى الفائدة السحرية، كأن تعيد إلى الميت شبابه وتمكنه من تحريك أعضائه، وإستخدام فمه وحواسه.

تطور الديانة ووراثة العرش: كان حورس الإله الرسمي، حتى تصدر رع في النصف الثاني من الدولة القديمة. ومنذ الأسرة الحادية عشرة أخذ مكانه أمون إله طيبه. وفي أواخر الأسرة السابعة عشرة أخذت مصر تحارب الهكوس، وتزعمت طيبه وإلهًا هذه الحركة وأخذت مصر تبني إمبراطوريتها في آسيا والنوبه بعد ذلك ولقد أقترنت تحركات الملوك بالنصر دائمًا وقد أعتبر هذا النصر منة من آمون، الذي تسمى آمون رع، حتى تشيع عبادته كعبادة إله الشمس القديم وأخذ الملوك يتبارون في إظهار عرفانهم بجميله وتقديرهم لعظيم رعايته، فبنيت له المعابد الضخمة، وتنافس الملوك في تزويدها بالأسرى والعبيد والأراضي الواسعة؛ كما صار يدخل خزائنه نصيب الأسد من الأسلاب والجزية،

حتى لقد صار كهنته أغنياء غنى فاحشًا، وإزداد نفوذهم حتى باتوا خطرًا على الملوك أنفسهم، فقد أخذوا يتدخلون في ولاية العرش. ويظن أنهم ساهموا في تعقيد مشكلة حتشبسوت وتحتمس الثالث، كما يبدو أنهم ضايقوا أمنحتب الثالث إبان ولايته وجدير بالذكر أن الدم الملكي لم يعد يكفي لإرتقاء العرش وحده، فقد أخذ الملوك ينتسبون لآمون رع رأسًا، فلقد عاشر آمون زوجة تحتمس الأول لينجب حتشبسوت، كما سجل أمنحتب الثالث بنوته لأمون على جدران معبد الأقصر. ولقد كان نفوذ الكمية المتزايد أحد أسباب ثورة إخناتون على أمون، فما أن تولى زمنه حتى أخذت الحياة كلها تصطبغ بالصبغة الدينية. فإنتشر السحر والتنبؤ والتطير وعبادة الحيوان، بل لقد صار الفصل في القضايا وتولي الوظائف العامة بإستشارة الآلهة، وبمعنى آخر فقد كان رد الفعل قويًا حتى لقد تغلغل نفوذ الكهنة في سائر مظاهر الحياة المصرية، وهذا بدأ الإنحطاط الديني وقد صاحبه الإنحطاط السياسي خطوة بخطوة.

ثورة إخناتون الدينية:

(أ) أتون:- لم يكن إله إخناتون إلهًا جديدًا، فلقد عرفت هذه الكلمة في مفردات اللغة بمعنى قرص الشمس. وإعتبارًا من عصر تحتمس الرابع-جد إخناتون-ظهرت عبادته. وتقدمت هذه العبادة أيام أمنحتب الثالث، فكانت البحيرة التي إحتفرها لزوجته تسمى أتون يضيء، كما دخل إسم أنون في إسم قارب البحيرة، وفي إسم فصيلة في الجيش من عهد هذا الملك.

(ب) ولقد كان البحث عن إله كأتون أمرًا لازمًا وذلك لما طرأ على الحياة من تغير في الأسرة الثامنة عشرة:

١- فلقد إتسعت أملاك مصر، وخرج المصري عن عزلته، ورأى أن العالم ليس مصر فقط كما كان يعتقد، وعرف شعوبًا أخرى لها ديانات كديانته، مشركة ومحلية، فكان لابد للتفكير المصري من التقدم بحيث يؤمن بإله عام يجمع الشعوب كلها، وتعرفه الأمم بأسرها.

٢- ولقد تفتق التفكير المصري منذ أقدم العصور عن فكرة إله الشمس، ولقد تغلب عليه آمون منذ الدولة الوسطى، فعاد المصريون يحنون لعبادة الشمس، التي تشرف على كل الأمم ويعم فضلها المعمورة دون تمييز جنس على آخر، علاوة على أن عبادة الشمس كانت معروفة لكل هذه الشعوب.

ولم يكن يعقل أن يختار أوزيريس فهو النيل على أية حال. كما أن آمون إله محلي خاص بطيبه، ويمثله الكبش الذي قد لا تعرفه كل هذه الشعوب.

٣- ويمكننا أن نخمن السبب في عدم الرجوع لعبادة رع نفسه: فلقد توصل آمون إلى مكانة إله الدولة بعد أن صار آمون رع، وإنتهى الأمر بأن بات رع نفسه إحدى صور أمون. ولقد أفعم هذا الوضع نفوس كهنة أمون مرارة شديدة، وخاصة بعد أن صار رئيس كهنة رع

مرؤوسًا لرئيس كهنة أمون. وبإزدياد ثروة كهنة آمون، وعظم نفوذ كهنته، شعر الملوك بأن من واجبهم إيجاد حل يطامن من سلطان أمون، خاصة بعد أن صار كهنته يتدخلون في السياسة وولاية العرش، ولقد فكر بعضهم في تغليب رع من جديد ولكن التيار كان أقوى منهم.

(ج) أما التعصب للإله الجديد من الصعب التكهن بأسبابه الحقيقية. ولقد كان من المستطاع أن يعبد أتون إلى جانب باقي الآلهة المصرية، كما أن إخناتون كان يعترف بالآلة كلها في بداية عهده، أما ما خلد إسم إخناتون وإلهه، فكان التوحيد المطلق الذي أسبغه على الدين الجديد.

ولعل الأمر بدأ بتحمس الملك الشديد لأنون، فقد بدأ عهده بإقامة معبد له في طيبه، ثم أطلق إسم أنون على الحي الذي يقع فيه المعبد، وأخيرًا سمى طيبه بأسرها بمدينة بهاء أتون. ولقد كان هذا الأمر خطيرًا إذ كانت اطيبه مدينة أمون الخاصة. ولنا أن نتصور مدى ما أصاب كهنة أمون من ذعر، فقد كان من الممكن أن يعيش أتون بجانب أمون، أما أن يسيطر عليه ويغتصب مدينته، فهذا ما لم يرضوا عنه بحال. ولهذا فربما لجأوا إلى مناوأته. ولا يجب أن ننسى أن الملك آنئذ كان قد صار شابًا ناضجًا، فلابد أن تفكيره كان قد إرتقى، وفكرته عن العبادة قد تبلورت. ولقد كان الملك فذًا سواء في تركيب جسمه أو في إتجاه تفكيره.

إذن فقد كان نضوج الملك، ثم مناوءة الكهنة له سببًا في تعصبه

الذي إنتهى إلى التوحيد.

ولكي يتخلص من كل تأثير لأمون غير إسمه من إمنحتب إلى أخناتون. ثم شرع في بناء عاصمة جديدة ، كي تكون مدينة لأتون، أطلق عليها إسم أخت أتون (أفق أتون)، وبهذا أبتعد عن جو طيبه الذي يلوثه أمون، كما شرع يحارب هذا الإله ويمحو إسمه من على الآثار.

(د) ديانة إخناتون: إختلف الرأي في ماهية إخناتون، فقد أعتبره البعض مخبولا، بينما قال البعض الآخر أن دينه مادي، وأنه لم يأت بجديد أكثر من التوحيد، وفئة أخيرة ترى فيه أول من نادى بوحدانية إله، دينه هو الروحانية السامية، ويكفي دليلًا على عظمته أن قد كتب عنه أكثر مما ألف في سيرة أي ملك قديم إطلاقًا.

وتمدنا أناشيد إخناتون التي ألفها بنفسه، والتي نقشها أفراد حاشيته على جدران مقابرهم بتل العمارنه، تمدنا بالمصدر الأساسي لدراسة دين أتون ومنها تنضح خصائص هذا الدين:

١- فهو أولًا دين يقدس الطبيعة، ويتذوق بساطتها، ويدعو إلى التأمل في بدع الخليقة، فيتوصل من هذا إلى عظمة الخالق.

٢- أتون هو الخالق، وهذا سمو لا نعهده في كافة الأديان القديمة التي تفترض دائمًا وجود العالم قبل الآلهة.

٣- لم بصور أتون، كما لم تعمل له تماثيل، فقط كان له رمز يمثل قرص

الشمس يمد أياديه حاملة الحياة إلى أنوف الخلق، فهو رمز رحمته. ومما له مغزاه أن معبده كان مكشوفًا للعبادة البسيطة في الهواء الطلق، تغمره أشعة الشمس، في حين كانت الآلهة القديمة تسكن في قدس أقداس مظلم إمعانًا في التخفي.

٤- يدعو الدين الجديد إلى العيش البسيط على السليقة، بما يظهر أثره في الفن، فيصور الملك في صحبة أطفاله يداعبهم كما يداعب زوجته، ما لم يكن معهودًا من قبل. كما تصور عيوبه الجسمانية دون خجل منها، ويصور أفراد العائلة الملكية وهم يأكلون بنهم وتلذذ.

٥- الطقوس بسيطة، يرأس الملك القائمين بها وتشترك الملكة في أدائها بالغناء، وتقتصر على الأغاني والمدائح تصاحبها موسيقى ورقص، بينما تقدم الزهور والثمار لأتون.

ولقد أخفق خلفاء الملك الفيلسوف في الإستمرار به بعبادة أتون، فلم تلبث دسائس كهنة آمون أن أثمرت، ووقع توت عنخ أمون صك العبودية لأمون وكهنته، فعاد الدين القديم ونفوذ الكهنة أقوى مما كان، وصارت ذكرى إخناتون تطارد، فهجرت مدينته ولقب بمجرم أخت أتون.

أثر الثورة الدينية في الفن: كان الملك يدعو للصراحة، كما لقب نفسه بالعائش في الحق، ولهذا فقد أرشد فنانيه بنفسه أن يمثلوه ويصوروه كما هو بعيوبه الجسمانية. ولقد كان طابع العمارنة في بداية الأمر المغالاة في كافة المظاهر، فالعيوب مبالغ فيها حتى تبلغ درجة

الكاريكاتير، كما أن مناظر الحرس والعربة الملكية مثلت فيها الحركة السريعة. ولقد أخذت هذه المغالاة تهدأ قرب نهاية عصر العمارنة، مما أتاح للفنانين عمل القطع الفنية النادرة كرأس نفرتيتي المشهور وتماثيل توت عنخ آمون وغيرها.

ولقد كان إطلاق العنان للفنان سببًا في أن أخذ يتجه إتجاهًا يعبر فيه عن المشاعر الداخلية، مما نراه واضحًا في تماثيل وصور هذه الفترة. ولقد كان شغف إخناتون بإلهه حيث أغرم بأن يصور متعبدًا خاشعًا أمامه. ولقد كان لهذا أثره في فنون الرعامسة من بعده فصاروا يصورون أو يمثلون وهم يتعبدون في خشوع مغالى فيه. ومما يتفق مع إتجاه التحرر، عدم التقيد بتقسيم الحائط إلى صفوف من المناظر. وقد يكون هذا أساسًا لمناظر الحرب التي رسمت على جدران المعابد في مساحات كبيرة وذلك منذ بداية الأسرة التاسعة عشرة.

أثرها في الأدب: لعب عامل حب الحق نفس الدور في الأدب، فإستعملت اللغة العامية المفهومة في الكتابة والتأليف. ولهذا أتت آداب هذه الفترة خالية من التكلف الممجوج، ولقد تركت هذه اللغة العامية أثرها في الأدب الذي أتى فيما بعد.

وأناشيد إخناتون تمثل أرقى ما وصل إليه الأدب المصري من حيث صدق التعبير وروعة الإنشاء حتى يمكن مقارنتها بمزامير دواد.

إستمرار الحضارة: أما بعد فلقد سار موكب الحضارة المصرية في

طريقه حتى نهاية تاريخ مصر القديم، ولكنه كان يسير بقوة الإندفاع، بعد أن أعوزته القوة الدافعة والروح الخالقة المبدعة، فعاش جامدًا خاليًا من الحياة وقوة التعبير، وحين حاولت مصر أن تنهض في الأسرة السادسة والعشرين لم تجد أمامها سوى العودة إلى القدم على أنه أبدع ما يمكن أن يكون، فكان تقليدًا تنقصه الأصالة. ورغم هذا فقد كانت مصر وفنونها وعادات أهلها وعقائدهم ومعابدهم ومبانيهم وتعاليمهم موضع إعتزاز المعالم القديم وتقديره، كما هي محل إعجابنا وإهتمامنا في الوقت الحاضر.

الباب الثاني

حضارات الشرق القديم

كان الهلال الخصيب موطنًا لحضارة عظيمة ساهمت بنصيب كبير مع حضارة مصر في بناء صرح المدنيات التي إستمدت منها فأضاءت هاتان الحضارتان كفناران، أحدهما في الجنوب الشرقي للبحر المتوسط والآخر في غرب آسيا بينما كانت الظلية تغطى سائر العالم.

موقعه: يمتد فرعه الغربي من هضبة كنعان شمالًا ويمر بسوريا حيث يجري نهر الأردن والأورنت، وعلى يمين الأرونت تمتد هضبة صخرية حتى وادي دجلة والفرات اللذان يحصران بينهما سهول ما بين النهرين وشنعار وهذا هو الفرع الشرقي الذي يمتد حتى الخليج الفارسي (أنظر صفحة ١١٢).

عوامل قيام الحضارات:

كل هذه الأنهار تروي الأرض وتخصبها وفي جو من النظام والطمأنينة وصل أهل الهلال الخصيب إلى درجة كبيرة من الحضارة في نفس ظروف مصر.

قصر عمرها:

على أن غنى المتحضرين المستقرين وفقر البدو المرتحلين المتبررين

ما لبث أن دفع البدر إلى التسلل ثم الهجوم.

بدأت هذه الحركات تشغل مصر منذ أواخر الدولة الوسطى، ولكن ظل الطابع المصرى هو الراجح، بينما أقلقت الهجرات السامية التي وصلت تحت أسماء مختلفة إلى بلاد ما بين النهرين مضاجع السومريين المستقرين الأوائل.

وصل القادمون الجدد من كاسيين وهكسوس وميتانيين وحيثيين، وخرج المصريون إلى فلسطين وسوريا في الأسرة ١٨، بل وسعوا للوصول إلى آسيا الصغرى والفرات للدفاع عن حدودهم. وبعد إنحلال إمبراطورية مصر إحتل الآشوريون مركز المصريين على رأس شعوب الشرق ووجهوا هذه اليقظة إلى حدود الإمبراطورية وإتبعوا في ذلك طرقًا وحشية. وإستمر الميديون والبابليون خلال قرن من الزمان ينظمون إمبراطورية عسكرية حتى أصبح كل هؤلاء الشرقيين من دجلة حتى النيل رعايا لغزاة آريين هم الفرس الذين كونوا إتحادا قويًا في الشرق تحت سلطانهم المطلق. وبسرعة إندحروا أمام إغريق مقدونيا بزعامة الأسكندر ومن هنا يبدأ خسوف حضارة آسيا وظهور حضارة في أوربا بما نقله الأغريق عن حضارة الشرق ومصر نقلوها بدورهم للرومان.

هجرات الشعوب:

يوجد موطن الساميين الذين سوف يستقرون في الهلال الخصيب بين فرعي هذا الهلال جنوبًا بما في ذلك بلاد العرب.

أما موطن الآريين (الشماليين، الهند وأوربيين) فكان أستبس روسيا والتركستان الحاليين ثم إحتلوا حوالي ٢٠٠٠ق.م هضاب آسيا الصغرى وإيران. وعندما نزلوا إلى الهلال الخصيب أصبح تاريخ الشرق عبارة عن الصراع بين الساميين والآريين.

أثر الموقع في الإتصالات بين شرق آسيا والبحر المتوسط:

كان الإتصال سهلًا رخيصًا بواسطة نهري دجلة والفرات مع جبال الأناضول وإيران وسهل سوريا والبحر المتوسط إذ أن نهر الفرات في مجراه الأعلى لا يبعد سوى ١٠٠ كيلو مترًا عن الأورنت الذي يوصل إلى البحر المتوسط.

كذلك عرف الإتصال البري إذ كشف في سومر عن أقدم مركبات ذات عجلات في تاريخ العالم وهذه المركبات لم تعرف في مصر ذلك حتى الوقت وعثر على أختام تدل على صلة بين الهند وسومر ومصر.

أهم الحضارات

أولًا: حضارة سومر

١ - هجرات الأقوام إلى الهلال الخصيب.

قبل أن يصل الساميون إلى بلاد ما بين النهرين عام ٤٠٠٠ ق.م كان يقطن مرتفعات عيلام وسهول سومر (أنظر صفحة٢) جنسان غير ساميان لا نعرف إلى أية سلالة ينتمون ولا أي طريق سلكوه حتى وصلوا هذه الجهات.

حضارة السومريين الأوائل:

كشف عنها في الجزء الواقع بين الخليج الفارسي وتفرع دجلة والفرات وهي حضارة توازي في عظمتها الحضارة المصرية.

الأهالي: ليسوا بآريين ولا ساميين صغار الجسم ذوو وجه ضخم. وكان الرجال حليقي الشعر والذقن يلبسون الصوف المغزول الرفيع ويتركون الجزء الأعلى من جسمهم عاريًا. أما النساء فيسدلن مآزر على أجسامهن من الكتف الأيسر، والموسرات منهن ينتعلن أحذية ذات أربطة من الجلد الرقيق وزينتهن الخلاخيل والأساور والخواتم والأقراط.

الزراعة: السومريون هم أول من زرع الأرض في حوض دجله والفرات ونظموا المياه بحفر الترع والقنوات وشقوا الطرق وزرعوا النبات

وإستأنسوا الحيوان، أي أنهم قاموا بمثل ما قام به المصريون من أعمال عظيمة في نفس الفترة. ويلاحظ أن أرضهم هى هبة من النهر. ومثل دلتا النيل، تكونت من الطمي الذي بجلبه فيضان النهرين السنوي الناتج من الأمطار الشتوية. وقد أخرجت أرضهم محصولات وفيرة، وزرع لأول مرة الذرة والشعير والقمح والخضر والنخيل.

وظهر المحراث تجره الثيران وكانت الحيوانات المستأنسة مثل المعروفة في مصر البقر والماعز والخنازير؛ وينقصها الحصان مثل الحال في مصر.

الصناعة: ندرة المعادن جعلت السومريين يصنعون معظم آلاتهم من الظران والدقيق منها من العاج والعظام ولكنهم إستخدموا أيضًا الذهب والنحاس وجلبوه من عيلام والقوفاز وتدل صناعاتهم على مهارتهم.

التجارة: باعوا تجارتهم في جهات بعيدة مستخدمين النهر والمركبات في إنتقالهم فتبادلوا مع عيلام والقوفاز تجارة أرضهم وهناك ما يدل على صلتهم بمصر.

الكتابة: إخترع السومريون الكتابة المعروفة بالمسمارية، فكتبوا على الطين الطري، ونقشوا عليه ما يريدون بسن آلة حادة كالمسمار، ثم يجفف لوح الطين في النار أو حرارة الشمس. وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار وأغلب الظن أنها كانت علامات وصور ثم بسطت بمضي الزمن للرغبة في سرعة كتابتها فصارت رمزًا للأصوات لا صورًا للأشياء.

العمارة: كانت البيوت تبنى من الغاب ولبنات الطين المخلوط بالقش، وأبوابها من الخشب وقد دعا إلى ذلك عدم وجود أحجار في سهل شنعار ولما كانت هذه المواد هشة، إستحالت إلى تلال يسهل العثور عليها مكان مدينة سومر القديمة. وكانت أغلب قصور الأغنياء تبنى بالأجر. أما الهياكل فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية، وكانت تبنى فوق ربوة عالية وكانت مكونة من ثلاث طوابق أو أربع، أو سبع أحيانًا. ويحيط بالهيكل سلم ذو بسطه عند كل منحنى، ويعلوها مقصورة الإله.

الفن: تزين الهياكل تماثيل الآلهة والحيوانات والأبطال من بني الإنسان ومعظم ما بقي منها مثل الملك جوديا (شكل ١٣) وهي منحوته من الديوريت نحتًا واضحًا، ولكنه فج ساذج. ومن فن النقش لدينا لوحة الملك نارام سن (شكل١٤) تمثله في حجم كبير، يتبعه جنوده، ومثل أعداؤه في حجم صغير، وقد أصابتهم سهامه، يطلبون الرحمة منه.

المدن الملكية السومرية: وصلت المدن السورية في الفترة بين ٤٠٠٠–٢٩٠٠ق.م إلى درجة كبيرة من التقدم، فكانت كل مدينة تكون دولة صغيرة، لها إلهها وملكها الكاهن، ولها معبد وقلعة ملكية، يتجمع حولها التجار والفلاحون في مساكن من اللبن، للوقاية من هجمات البدو. وقد عثر على إحدى عشر مدينة من هذا النوع، أهمها أور. وكان قصر الملك منيعًا، له مدخلان ضيقان، لا يتسع الواحد منهما

لدخول أكثر من شخص لتسهل مراقبته. وكان الملك صاحب السلطة المطلقة، يقطع الزعماء مساحة واسعة من الأرض، مقابل محافظتهم على الأمن وتقديم الجنود والعتاد.

الجيش: يخرج الملك وقت الحرب في عربة على رأس جيش مسلح بالحراب والقسى والسهام. وكان الأعداء المغلوبون يباعون كعبيد، أو يذبحون قربانًا للآلهة.

الديانة: وكان لكل مدينة إله. وقد نشأت عبادة الشمس في سومر. وكانوا يعتقدون في الأرواح والشياطين، وآلهة للري والزرع تقدم لهم القرابين من المأكولات.

الأدب: سجل الشعراء والأدباء قصصًا عن بداية الخلق، وعن الجنة التي قضى عليها طوفان عقابًا لأهلها على ذنب إرتكبه أحد ملوكها الأقدمين ولقد تناقل البابليون والعبرانيون هذه القصة.

٢- إغارات الساميين على سومر:

وصل الساميون من الصحراء حوالي ٤٠٠٠ ق.م ودفعوا السومريين جنوبًا نحو الخليج الفارسي وإنقسمت شنعار إلى قسمين:

(أ) القسم الشمالي يستعمره الساميون ويكون بلاد أكاد، نسبة إلى مدينة أجاد.

(ب) القسم الجنوبي وقد ظل يسكنه السومريون.

الأكاديون: ويتميزون بالنحافة والطول، والأنف المقوس، وإطلاق شعورهم ولحاهم، ما يميزه عن جيرانهم السومريين، وبإتصالهم بالسومريين أخذوا منهم زراعة الأرض، والتجارة والكتابة.

سرجون الأول: تجمع الساميون في أكاد حوالي ٢٨٥٠ ق.م تحت زعامة سرجون وكونوا ملكة عاصمتها أجاد. ولم يكن سرجون من أبناء الملوك ولم تكن والدته سوى عاهرة من عاهرات المعابد–ولكن الأساطير السومرية إصطنعت له سيرة روتها على لسانه، شبيهة في بدايتها بقصة موسى. فهو يقول «حملت بي أمي الوضيعة الشأن، وأخرجتني إلى العالم سرًا، ووضعتني في قارب كالسلة، وأغلقت على الباب بالقار»، ثم أنقذه أحد العمال.

فتوحه وآثارها: أخضع سرجون عيلام، ووصل للفرع الغربي للهلال الخصيب، وإستغل مناجم الفضة في جبال طورس؛ وغابات لبنان. وإتخذ هو وإبنه–نارام سن–لقب ملوك أركان العالم الأربع.

حمورابي: حدث غزو سامي جديد من بلاد آمور في سوريا. حقق السلام والوحدة وإنتهى التنافس بين سومر وأكاد. وأسس الغزاة الجدد مدينة بابل (باب الله)، التي أصبحت عاصمة للبلاد كلها سنة ٢٢٢٥ ق م.

ومن الملوك العظام الفاتح والمشرع حامورابي (٢١٢٣–٢٠٨١ ق.م) الذي مد نفوذه على عيلام وكل الهلال الخصيب. ومن أهم ما خلفه لنا قوانينه المعروفة التي وجدت منقوشة على شاهد من الديوريت.

والجزء الأعلى منه يمثل إله الشمس (شمش)، يسلم لفة من القوانين لحمورابي، وباقي الكتلة محفور عليه نص القوانين (شكل ١٥) وقد حوى النص ٢٨٥ قانونًا منها الخاص بالأملاك المنقولة والعقارات، ومنها الخاص بالتجارة والصناعة والأسرة. وقد جمع حمورابي ما دون في سومر من قوانين وأضاف ما صدر في عهده وعهود أسلافه إليها. ورغم قدم هذه القوانين، لا يقل بعضها في الدقه عن تشريع أي دولة حديثة كما نجد فيها قوانينًا حوت أقسى العقوبات، كقانون النفس بالنفس، والتحكيم الإلهي ولقد إفتتح النص بأن الآلهه كلفته بنشر العدالة في العالم وهو يدعو كل من يقرؤه إلى أن يهتدي به

ثانيًا–الحضارات السامية

نشأتها نتيجة للهجرات التي بدأت من جزيرة العرب:

ذكرنا فيما سبق موطن الساميين الأصلي في بلاد جزيرة العرب والجزء المحصور بين طرفي الهلال الخصيب. ولقد حدثت هجرات واسعة إلى الأراضي الزراعية المجاورة، وكان إستقرارهم فيها بداية تاريخ هذه الأمم.

١– إستقر فرع منهم في شمال سهل شنعار حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م، وأسسوا دولة أكاد، وسميت كلديا فيما بعد.

٢– إستقر فرع آخر في سوريا حوالي سنة ٣٠٠٠ق.م وهم الآموريون الذين هاجروا مرة أخرى إلى شنعار حوالي ٢٦٠٠ ق.م، وأسسوا بابل وسموا البابليون.

٣– فرع منهم أسس دولة أشور على نهر دجله حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م.

٤– فرع آخر كون شعب العبرانيين، الذين وصلوا إلى الضفة اليمنى للأردن، وكونوا في بلاد كنعان شعب إسرائيل.

٥– وكان الفينيقيون فرع آخر من الساميين، أحتل مواني ساحل سوريا على البحر المتوسط.

١ -الأشوريون

أهمية موقع أشور: كانت أشور تقع على ضفاف الدجله، وحول وديان روافد أعالي الفرات. وبحكم موقعها هذا كانت عرضة لغزوات الحيثيين من ناحية والبابليين من الأخرى. كما كان يحيط بها أقوام همج كشعوب السكوذيين والكمريين، تهدد حدودها بإستمرار، فنشأت أمة عسكرية، تعتمد على الحروب في صيانة كيانها، وإرهاب جيرانها، وإستعمار البلاد المحيطة بها. ولما كانوا إلى هذا شعبًا جبليًا، فقد كان طابع أخلاقهم عسكريًا جافًا، خشنًا يبلغ حد القسوة البشعة أحيانًا. ولما كانت أشور محصورة، جعلت همها أن تنفذ إلى البحر المتوسط أو الخليج الفارسي، وكان هذا سببًا آخر لسلسلة حروبهم الطويلة.

عوامل قيام الحضارة بها:

١– موقعها: وكان عاملًا أساسيًا في إقتباسها حضارة بابل من ناحية، وقد كانت هذه في أساسها حضارة سومير، ثم حضارة الحيثيين من الناحية الأخرى، فأخذوا عن بابل الدين، والطب، والفلك، والكتابة، كما أخذوا عن الحيثيين إستخدام الحديد، والحصان والعربة.

كما كان لوقوعها بحيث تحيط بها شعوب متبربرة معادية، أثره في أنها كانت أمة عسكرية ذات حضارة، تهتم بالأسلحة وفنون الحرب أكثر من إهتمامها بالتفكير الديني أو بمذاهب الفن، وتكاد نقوشها تقتصر على تصوير الحياة الحربية. وما له مغزاه أن دولة هذا شأنها، تعتمد

إعتمادًا كليًا على مصنوعات ومنتجات مستعمراتها، قدر لها أن تنهار فجأة حين أنسلخت هذه المستعمرات عن حكم أشور.

٢- طبيعة أرضها: كانت بلاد أشور تزخر بالمعادن والأحجار. فإستخدموا البرنز والنحاس ثم الحديد في صنع الأسلحة والأدوات المنزلية. أما الأحجار فرغم توفرها، فقد أخذوا طريقة البناء بالطوب عن البابليين، ولكن مع التوسع في إستعمال الأحجار. كما أخذوا عن البابليين كثيرًا من التفاصيل المعمارية كالعقود.

ولقد كان لوجود البدو المتاخمين لأشور من الشمال، ولبعد أشور عن البحر المتوسط أو الخليج الفارسي، ولعدم مرور الطرق المؤدية إلى البحر بها، كان لكل هذا أثره في إشتغال الناس بالزراعة، مما تهيؤه لهم الأرض الخصبة التي عاشوا فيها، فلم يكن من الممكن تكوين مراكز تجارية هامة بأشور، كما كان الحال في بابل.

عناصر السكان: كانوا خليطًا من الساميين الجنوبيين من بابل وأكاد ومن قبائل العرب، ومن الكرد وسكان القوقاز. ولقد إختلط بهم فيما بعد شعوب البلاد التي فتحوها من عبيد وأسرى الأمم المغلوبة، كما عهد ملوكهم إلى نقل شعوب بأكملها إلى أشور، وقد أدى هذا في النهاية إلى ضعف صفاتهم الجسمانية والخلقية، فكان عاملًا من عوامل إندثار أشور.

أثر الحيثيين:

أخذ الأشوريون عنهم كثيرًا من مظاهر حضارتهم العسكرية خاصة،

مثل إستعمال الحصان والعربية والأسلحة، وإستعمال الحديد في صناعتها، وذلك عن طريق الإتصال الودي، أو أثناء إنشغالهم بالحرب معًا، مما يحفل به تاريخ الدولتين.

كما كان للحيثيين أثر آخر، فقد أتاح صراع خيتا مع مصر أيام الأسرة التاسعة عشرة على وجه الخصوص، ثم إنشغالها ببابل من ناحية أخرى، أتاح هذا لأشور أن تتفرغ لبناء وتدعيم كيانها، كتمهيد لظهورها فيما بعد بمظهر الدولة الجبارة التي لا تغلب.

إتساع آشور:

١- برجع وجود آشور إلى عصر ما قبل التاريخ. وقد نشأت الحضارة فيها حول مدن أشور (قلعة شرغات)، التي صارت عاصمة فيما بعد. وأشور هذا إسم إله المدينة، وأربلا (إربل) والكلخ (غرور)، ونينوى (قويونجك).

٢- تنازعتها بابل والميتاني، وكانت بابل هي الفائزة أخيرًا.

٣- حين تعرضت بابل لغزوة الكاسيين، إستقلت أشور.

٤- ضم شلما نصر الأول مدن الشمال لمملكته واتخذ الكلخ عاصمة له.

٥- تجلات بلاسر: كان أعظم ملوكهم. وخضعت له بلاد الحيثيين والأرمن وبابل، وأرسلت له مصر الهدايا. ولقد ثارت بابل في أخريات أيامه.

٦- سرجون: قام بإنقلاب عسكري، إغتصب الملك على أثره من حفيد تجلات بلاسر، وضرب على أيدي البابليين، كما وسع حدود بلاده حتى شاطىء البحر المتوسط، كما هزم المصريين لتأليبهم اليهود على أشور.

٧- إستمر خلفاؤه يؤدبون بابل، فأحرقها إبنه سنحريب ثم أعاد تعميرها أسر حدون إرضاء لأهلها. كما هزم سنحريب مصر ثانيه لإثارتها الشعوب الخاضعة لأشور. وتم حوالي ذلك الوقت تجميل نينوي وإتخاذها عاصمة.

٨- بلغت أشور ذروة مجدها ومدى إتساعها في عهد أشور بانيبال، من الحبشة إلى أرمينيا؛ ومن سوريا إلى ميديا.

سقوط أشور: أدى إلى هذه النهايه العوامل الآتية:

١- كانت إمبراطوريتها بلا حدود طبيعية.

٢- أستنزفت الحروب المتصلة مدى أربعين عامًا موارد أشور، ولقد صاحب إزدياد إتساع رقعتها، إزدياد الفساد فيها.

٣- إعتمادها في مواردها على الأمم الخاضعة لها، فلما أنسلخت عنها أنهارت دفعة واحدة.

٤- إنحلت صفات أهلها الجسمية والخلقيه بعد أن أفنت الحروب زهرة رجالها، كما أختلط بسكانها آلاف مؤلفة من العبيد والأسرى.

٥- لم يلبث الأجانب أن أنتشروا في مناصب الجيش والإدارة.

٦- لم تكف الشعوب البدوية المناخمة عن العدوان على أطراف أشور.

وكان القضاء على أشور على يد بابل، التي لم تكف أبدًا عن الكفاح في سبيل إستعادة حريتها المهدرة، ولم تنس لأشور حرق بابل وسبي أهلها والتنكيل بعظمائها. على أن محاولاتها كانت تبوء دائمًا بالفشل حتى تكاتف البابليون مع الميديين والقوقازيين الذين هاجموا أشور من الشمال، في حين تقدم نبو بلاسر وأبنه نبوخذ نصر من بعده في أراضي أشور شمالًا، وحطموا نينوي.

ولقد كان إنهيار أشور إلى الحضيض لاحقًا مباشرة لبلوغها الذروة. ولقد سددت بابل الضربة وأحكمت إصابة الهدف ولما يمضي أربعة عشر عامًا على وفاة أشور بانيبال العظيم، فأختفت فجأة دولة عظيمة من الوجود كفقاعة لمعت ثم فجأة لم يعد لها من أثر.

٢ - الكلدانيون

العاصمة بابل: أتخذت دولة الكلدانين بابل - العاصمة القديمة - عاصمة لهم. وكان قد مر بها ستة قرون من إحتلال الكاسيين، تلاها أربعة قرون إنحلال. ولقد تركت سيطرة أشور أثرها في المدينة، إذ كان سنحريب قد أحرقها.

ولقد أعاد خلفه أسر حدون الأشورى تعميرها. إلا أنها صارت من

أعظم وأغنى عواصم الشرق القديم أيام نبوخد نصر الثاني، الذي أنفق عليها دون حساب من أموال الضرائب والمكوس والخراج.

ولقد زارها هيرودرت بعد حوالي قرن وربع، ووصف مبانيها المبنية بالطوب، كما ذكر السور الضخم المحيط بها، ويتوسطها معبد الراجورات السامق، (شكل ١٧)، وقصر الملك على ربوة مجاورة، وبقربها حدائق بابل المعلقة – إحدى العجائب السبع.

بختنصر (نبوخد نصر الثاني): أخذ على عاتقه إكمال عمل والده في تحرير بابل بمساعدة ميديا الناشئة. وإذ تم له تحطيم أشور، بدأ سلسلة من الحروب الموفقه لتكوين إمبراطورية مرهوبة الجانب، فأستولي على سوريا وفلسطين، بل وأصطدم بجيوش مصر وهزمها عند قرقميش في محاولتها مساعدة أشور ضد بابل. وإلى جانب كونه محاربًا ممتازًا فقد كان سياسيًا ناجحًا وبناء معمرًا. وهو يعد – لما حققه – أعظم ملوك بابل بعد حمورابي. ويذكر عنه سفر دانيال أنه من عقب إنتصاراته المتلاحقه، فعاش أربعة سنوات عيشة الحيوان، ثم عاد إليه الرشاد قبيل وفاته.

ولم تر بابل بعده ملكًا في قوته وحزمه، فعمد الكهنة، وكانت ثروتهم قد تضخمت وشوكتهم قد قوبت، إلى إغتصاب السلطة من خلفائه، كما عمد منافسو الكهنة بدورهم إلى تمكين قورش الفارمى من غزو بابل نكاية بهم. وعلى يد قورش ينتهي تاريخ الكلدانيين في بابل.

العلاقات بين مصر وبابل أيام الكلدانيين:- كانت بابل ترزح تحت نير الكاسيين أيام الأسرة الثامنة عشرة، و لقد كانت مصر تشعر بالتعالي على بابل بل وكافة دول الشرق آنئذ. وكانت العلاقات بين البلدين ودية، ترسل مصر الذهب لملوكها، وتحرس قوافل تجارتهم في آسيا الغربية، كما تزوج ملوك مصر من أميرات بابل. وأنقطعت العلاقات تقريبًا أيام أن خضعت بابل لأشور، ثم عادت تستأنف في عهد الأسرة السادسة والعشرين، فقد أقلق ملوك مصر إرتفاع شأن بابل المتزايد بعد أن أستقلت وهزمت أشور، وحاول نكا والثاني ملك مصر مساعدة أشور ضد بابل، فتقدم حتى قرميش حيث هزمه نبوخد نصر. وبعدها لم يعد ملوك مصر يفكرون في التدخل في شئون بابل.

ولقد بدأت بعد ذاك قوة جديدة تتجسم، تلك هي فارس. ولقد تحالفت بابل ومصر ضدها دون أن يجدي هذا التحالف، إذ لم تلبث فارس أن أبتلعت بابل، ثم ثنت بمصر، ولم يعد للدولتين ما يمكن أن نسمية علاقات سياسية.

مهاجمة فلسطين وتشتيت اليهود:- وقد تم هذا على يد نبو خدنصر بعد أن ثار اليهود على حكم بابل، فساقهم أمامه إلى بابل، كما سيلي مفصلًا.

الديانة:- كان الدين والدولة شيئًا واحدًا كما كان في مصر: فالملك كاهن أعلى ووكيل الآلهة. ولقد بنى الملوك لها المعابد، كما أقطعوها أراض واسعة، هذا إلى أن جانبًا كبيرًا من الأسلاب والجزية بل

والضرائب كان من نصيب الآلهة، ولقد تمتع بهذا كله طبقة الكهنة، حتى صاروا يكونون طبقة غنية تتحكم في شئون التجارة والزراعة والصناعة، بل لقد صار نفوذهم في النهاية يفوق نفوذ الملوك أنفسهم.

(١) الآلهة:- كان لكل مدينة إلهها الخاص، كما لم تختف الآلهة السومرية القديمة مثل أشتار وشمش. ويبدو أن فكرة الملائكة اليهودية مأخوذة عن بابل، فقد كان لكل فرد ملاك حارس. ومع الزمن تفوق الإله مردوك وصار إلهًا أعظم للإمبراطورية، وهو إله بابل العاصمة، وكان أصلًا أحد آلهة الشمس.

أما أشهر الآلهات فكانت أشتار، ومن وظائفها العديدة المتناقضة أنها كانت إلهة الحب والمال والطهو، ثم هي إله العاهرات.

(ب) الأساطير: - وكان الدين حافلًا بها، ولعل أصلها سومر، كما أن لها صداها أيضًا في دين اليهود. وتحكي قصة الخلق أن الإلهة تيامات كانت نيانها شريرة مدمرة، حتى لقد قلها مردوك وجعل جثتها شطرين، كونا السماء والأرض. ثم خلق الإنسان من طين ودم، ولما كثرت شرور البشر أهلكتهم الآلهة بطوفان لم ينج منه سوى شمش نيشتين وزوجته في فلك، وبه فرحت الآلهة ووهبته الحياة المخلدة.

ومن أساطيرهم ما فسروا به ظاهرة الربيع. فقد أحبت أشتار - إلهة الخلق والنماء - تموز الراعي، ولما قتل وأنتقل إلى العالم الذي لا يعود من يذهب إليه، عانت أشتار الكثير حتى توصلت إليه، وهناك سجنت،

فأقمحلت الأرض، حتى أذنت لها الآلهة بالعودة ومعها تموز، فعادت الأرض سيرتها.

ملحمة جلجميش: وأصلها سومري أيضًا. وجلجميش هذا حفيد شمش نيشتين، وكان حاكمًا لأوروك. وحدث أن أشتكي الناس ظلمه لأشتار، فخلقت له إنجيدو الغريب الخلقة ليهزمه. وينتهي الأمر بصداقة جلجميش وإنجيدو.

ولما رفض جلجميش الزواج من أشتار، دبرت مقتل صديقه إنجيدو. وحاول جلجميش إعادته للحياة، وهو لهذا يلاقي الأهوال حتى يصل إلى جده الخالد. ويعطيه هذا سر الحياة، إلا أنه يفقده في الطريق. وأخيرًا يظهر له إنجيدو من الجحيم ويقص عليه أهواله. وتنتهي القصة بهذه النغمة الحزينة.

(ج) أما فكرة العالم الآخر فلم يكن يختلف في نظرهم عن الأرض كثيرًا، وكان الثواب والعقاب يتمان على الأرض، فقنعوا بإرضاء الآلهة بالقرابين وأداء الطقوس، دون إعتبار لقيم الأخلاق.

العلوم: شعوب الشرق القديم شعوب تجارية، ولقد برزت بابل في هذه الناحية، ومن ثم كان تفوقها في العلوم العملية أكثر من تقدمها في الفنون، فلقد برعوا في الهندسة، وقسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة. أما الطب فقد كان السبب في تأخره إعتماده على الدجل والسحر.

الفلك: كان مرجع إهتمامهم بهذا العلم – الذي أشتهروا به – إلى

إستخدام النجوم في كشف الطالع، والتنبؤ بالغيب. ولقد توقف تقدمهم أيام إحتلال الكاسيين، ثم أستأنفوه أيام نبوخد نصر. وكان كل نجم بمثابة إله يتحكم في مصائر البشر. ولقد قام الكهنة – الذين تكسبوا من مهنة التنجيم – بعمل خرائط للنجوم أستغرقت تاريخًا طويلًا، وعرفو الثوابت من النجوم كما حددوا مسارات الشمس والقمر، وراقبوا ظاهرتي الخسوف والكسوف ومواعيد الإعتدالين والإنقلابين.

التقويم: وكان ما أضافوه في هذه الناحية إكمالًا لما خلفته سومير، ولقد قسموا مسار الأرض حول الشمس إلى إثني عشر برجًا. وكانت السنة إثني عشر شهرًا قمريًا، والشهر أربعة أسابيع حسب أوجه القمر، ويشتمل على ثلاثين أو تسع وعشرين يومًا، ويضاف إلى السنة شهرًا كل عشرة سنين.

وكان اليوم يبدأ من شروق القمر حتى شروقه التالي، وقسموه إلى إثني عشر ساعة (أي كانت الساعة البابلية تساوي ساعتين)، والساعة إلى ثلاثين دقيقة، ويبدو أنهم أبتكروا الساعة المائية والمزولة.

العمارة وتأثرها بالحضارات الأخرى: الحضارة البابلية بما فيها العمارة هي نتيجة إمتزاج حضارة الأكاديين بحضارة سومير، وكان البناء باللبن، والبيوت ضيقة الفتحات، وبعضها له طابقين أو ثلاث. أما المعبد فكان بناء ضخمًا، يتوسطه فناء، ويجاوره برج الزاجورات، الذي كان يشبه هرمًا مدرجًا، وكان بمثابة مرصد ومزار للإله صاحب المعبد (شكل ١٦).

٣- العبرانيون

موطنهم الأصلي: العبرانيون قوم ساميون. تقول التوراة عنهم أن موطنهم الأصلي كان اور في بلاد سومر.

إنتقالهم لفلسطين: ولقد نزح بهم إبراهيم إلى فلسطين حوالي سنة ٢٢٠٠ ق. م وكانوا قبيلة قليلة الشأن. ولما حدثت مجاعة في تلك البقاع نزل إلى مصر ثم لم يلبث أن عاد إلى كنعان. وتقص الكتب الدينية كيف نزل يوسف إلى مصر، والمكانة التي نالها في بلاط فرعون، ثم نزول بني إسرائيل في إثره. وإسرائيل هذا هو يعقوب من نسل إبراهيم. وبعد فترة يصعب تجديدها تاريخيًا، قادهم موسى عبر سينا في متاهة طوية إلى كنعان، وأشتغلوا بحرب الأقوام الضاربة هناك. حتى خلصت له أرض الميعاد.

أما عن تاريخ نزول يوسف وبني إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها فأمر يصعب تحديده، وربما دخلوا مصر أيام الهكسوس، وقد يكونوا خرجوا منها في بداية الأسرة الثامنة عشرة، فقد ورد إسم العبرانيين أيام تحتمس الثالث أما أول ذكر لإسرائيل فكان أيام مرنبتاح (أسرة ١٩) على أنهم شعب مغلوب.

فلسطين: ترجع أهمية هذا الشريط الطولي الضيق إلى وقوعه بين الدول الشرقية الكبرى، وإلى مرور طرق التجارة به. ولذا كان تاريخ ساكنيه سلسلة متصلة من الحرب والخضوع لهذه أو تلك من الدول.

تكوين الأمة العبرية: كانت سلالة يعقوب (إسرائيل) تنقسم إلى إثني عشر سبطًا تسمت بأسماء أبناء يعقوب. وبعد عهد موسى ويشوع كان يحكم كل سبط أو قبيلة شيوخ العشائر التي تتفرع من القبيلة.

وكان هناك قاض يقوم على أمر الشعب. ولم تلبث مشاريع الحرب المستمرة والرغبة في توطيد نظام الحكم أن تطلبت قيام نظام الملكية. وكان أول ملوكهم شاول، وخلفة داود الذي أتخذ أورشليم عاصمة. وكان يهوه يختار الملوك فيمسحه الكاهن بالزيت ويصير بهذا مسيح الرب أي مختاره، وورث داود الملك لأبنه سليمان، الذي أشتهر بالحكمة والثراء المفرطين. وبعد أن قتل أعداءه وأستتب له الأمر، شرع يوطد علاقته السياسية والتجارية بالأمم المجاورة كفينيقيا وبلاد العرب وغيرهما. كما فرض المكوس وأرسل البعثات في طلب الذهب، فتدفق الثراء على أورشليم فأزدهرت وإزدانت بالمباني الجديدة؛ وأهمها معبد يهوه وقصر الملك، كما حصن المدينة ليسهل الدفاع عنها. ولقد أشتهر الملك بزيجاته المتعددة وكان من بين زوجاته أبنة ملك مصر وأبنة ملك فينيقيا، وواضح أنها كانت زيجات سياسية.

وبعد سليمان أنقسمت مملكة العبرانيين إلى مملكة إفرايم أو إسرائيل من عشرة أسباط، وعاصمتها السامرة، ومملكة يهوذا من سبطين وعاصمتها أورشليم.

الديانة: كان العبرانيون أول أمرهم وثنيين؛ يعبدون الصحراء والحيوانات والأرواح الخفية، حتى أن موسى وجد صعوبة في تركيز

تفكيرهم في إله واحد، وتاريخهم يشهد بإرتداده المتكرر. فلقد كان لآلهة الأمم المجاورة تأثير مرغب عليهم، فكثيرًا ما أشتهوا إدخال بعل ومولك وتموز في دينهم. ولقد وجدت الشعوذة أيضًا مجالًا واسعًا لها رغم معارضتها للدين.

وكان يهوه أو ألوهيم – الإله الواحد – في أول أمره إلهًا ذا نزعات حربية، بما يتفق وحياة إسرائيل العسكرية في بدايتها، فهو يقود شعبه للنصر، كما يأمر بالتنكيل بالأعداء بل كثيرًا ما كان يغضب على شعبه نفسه حين يتمادى بنو إسرائيل في أزورارهم عنه، فهو إله غيور لا يحب الشرك.

وكانت الخطية فكرة الدين الرئيسية، وعقابها سريع حاسم فقد طرد آدم من الجنة، كما أغرق الطوفان سكان الأرض الخطاة، وأحرقت سدوم وعموره لنفس السبب. ويمكن إعتبار دينهم دين أوامر، الموت لمن لا يطيعها. وقد كان تابوت العهد خطرًا على من يمسه بقصد حسن أو سيء أو بغير قصد إطلاقًا. وكثيرًا ما كانت التضحية الحيوانية تكفر عن الذنوب.

ويتميز الدين العبري بأنبياء عظماء أدى إلى ظهورهم تفشي الفقر المدقع بين عامة الشعب يقابله ثراء فاحش بين قلة أغنيائه، علاوة على تفشي العطل بعد مشاريع سليمان مما أدى إلى ظهور روح الإستياء والتذمر، كما كان للتفكك السياسي بعد سليمان أثره في شعور الناس بالسخط. ولقد أخذ هؤلاء الأنبياء ينتقدون الشعب ملكه وأثرياءه وفقراءه

وكهنته خاصة، ويتهددون بالويل الداهم، كما يدعون إلى الحق لتحقيق حياة كلها محبة وخير. هكذا بدأ يتكون الضمير الإجتماعي لأول مرة في تاريخ آسيا، كما كانت تلك النزعة الإشتراكية المبكرة بداية بعيدة لتعاليم المسيحية، فأرتقت بالدين من دين طقوس ونواه، إلى دعوة للتمسك بالفضيلة والنبل، وبهذا صار رب الجنود القاسي إله حب ورحمة يعد بالبعث والخلود.

والدين بصفة عامة أرقى ما ظهر في الشرق القديم حتى ذلك الوقت، فقد أشتمل على التوحيد والحافز الأخلاقي بما يبث الحب والأمل في حياة أخرى أهنأ من الدنيا وأمثل.

الأدب: كتب العبرانيون مخلفاتهم باللغة العبرية، وهي لغة سامية، وبحروف ذات صلة بالحروف الفينيقية المتطورة من الحروف المصرية.

وجل آداب اليهود دينية. ويعتبر أدب التوراة أرقى ما وصل إلى الحضارة الحديثة من آداب الحضارات القديمة كافة. فمزامير داود روائع تصور في صدق أطوار النفس البشرية حين يمضها الألم وتنتشي بالأمل، وذلك في أسلوب شعري خلاب.

كما كانت نبوءات وأسفار أشعيا وعاموس قبل السبي، وإرميا بعده، من أبلغ ما كتب في الآداب. وهي تفيض بالمرارة التي تصل حد الشك في الخير، حتى لينتهي إرميا بلعن اليوم الذي ولد فيه. وإنه لمما يحرك النفس حقًا أن نرى إرميا ينذر شعبه بالعذاب المنتظر، ويقرن القول

بالعمل، فيحمل فوق كتفيه نيرا خشبيًا، داعيًا الشعب إلى تقبل العذاب الذي يستحقون، ويستسلموا لبنو خدنصر. ويرى البعض في مرائيه عقب تشتيت بني إسرائيل ذروة الأدب العبري.

ولقد أتجه الأدب في المنفي إلى بث روح الأمل في النفوس المريضة، التي هدها التشريد، حتى يحتفظ القوم بروحهم قوية، بأمل عودتهم وبناء المعبد وتعمير أورشليم.

تأثرهم بالحضارة المصرية: أستقر العبرانيون في مصر فترة من الزمن قبل خروج موسى بهم وتكوينهم أمة إسرائيل، كما أن بلادهم دانت لمصر بالخضوع فترة طويلة تمتد في الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين خاصة، وبهذا أتيح لهم أن يتشربوا العادات والأفكار ومظاهر الحضارة المصرية. ولقد تلقى موسى نفسه العلم في مدرسة معبد أون، والدين اليهودي حافل بأساطير ذات قرابة وثيقة بالأساطير المصرية من ناحية، والبابلية من ناحية أخرى. ويبدو أن العبرانيين أخذوا فكرة العالم الآخر عن البابليين أصلًا ثم أرتقوا بها بحيث صارت أشبه بعقيدة المصريين في البعث والحساب والخلود المنعم. وهناك صلات واضحة أيضًا بين أناشيد إخناتون لإله الشمس أتون وبين مزامير داود. كما أن معبد سليمان ما هو إلا خليط من عناصر بابلية ومصرية.

ولقد أتخذ اليهود الكتابة الفينيقيه في تسجيل آدابهم وتاريخهم، وهذه مشتقة من حروف ومقاطع الكتابه المصريه القديمة.

تعرضهم لغزو الأشوريين: كان إنقسام مملكة العبرانيين مقدمة للمصائب التي أخذت تترى على مملكتي إسرائيل ويهوذا. ولقد ساد الإضطراب شعوب آسيا في الفترة من سنة ٩٣٠ – ٨٢٠ ق .م حتى تولي شلمنصر أمر أشور، فأتحدت دويلات الشام وفلسطين أمام الخطر الداهم. وأخذت أشور ترسل حملاتها تباعًا إلى فلسطين وسوريا فتدين لها تارة، ثم تنفض عنها نير أشور تارة أخرى، وخاصة عندما تتفرغ أشور لثورات البابليين وكانت مصر خلف ثورات يهوذا وإسرائيل وسوريا، تدس فيها لأشور، بعد أن أعوزتها القوة على مقاومتها. ولقد نالت عقابها إذ لم يلبث أسرحدون وأشور بانيبال أن أغارا على مصر نفسها وتوغل فيها أشور بانيبال حتى طيبة وخربها.

وبعد قليل من عصر أشور بانيبال سقطت أشور فريسة لبابل، وأنتهزت مصر الفرصة فأستردت فلسطين لفترة قصيرة، ثم لم تلبث بابل أن وجهت همها إلى إبتلاع إمبراطورية أشور السابقة.

تعرضهم لغزو الكلدانيين: عقب سقوط أشور حاول نخار (أسرة ٢٦) إسترداد فلسطين، والوصول إلى أشور لمساعدتها ضد بابل، وتقدم حتى قرقميش حيث هزمه نبوخد نصر. ثم أغار نبو خد نصر على يهوذا، ولما ثارت ثانية أستولي على أورشليم وعاد بعشرة آلاف أسير، بعد أن ولى عليها ملكًا آخرًا.

تشتيتهم: ولما ثار ملك يهوذا الجديد – صدقيًا – خرج نبو خد نصر إلى أورشليم، فحرقها وهدم الهيكل، وقتل أبناء الملك وسمل

عينيه، ثم ساق سكان المدينة إلى بابل. وهذا التشريد كان قد تنبأ به أنبياء العهد القديم. وفي أرض الغربة أثرى اليهود وتزايد عددهم بعد أن ساد حياتهم السلام والطمأنينة، كما أخذ حزقيال يتنبأ برجوع اليهود وبناء المعبد.

عودتهم بعد فتح بابل على يد الفرس: – دالت دولة بابل عام ٥٣٩ ق. م حين أكتسحها جيوش قورش. ملك فارس – القوة الفنية الجديدة. وأذن قورش لليهود بالعوده إلى أورشليم، كما أعاد لهم ذهبهم من الخزائن البابلية. وكان قد أستقر في ديارهم أقوام ساميون، ولكنهم لم يستطيعوا لليهود ردًا، وقد كان رجوعهم بأمر قورش، حاميهم.

إعادة تنظيم الديانة والحكومة :

الديانة: أذن لهم دارًا الأول ببناء المعبد من جديد، وقام بذلك الأمير زر بابل. وتم هذا في إثني عشر عامًا لما كبدته إياهم هجمات الشعوب المجاورة. وعادت أورشليم يهودية بحتة، تتردد أجواؤها بأناشيد يهوه. كما أخذوا يهتمون بتسجيل التوراة، وكانوا قد بدأوا فيه قبل تشتيهم بقليل.

الحكومة: – لم يكن في وسعهم تكوين دولة حربية وفارس تتسلط عليهم، فوضع الكهنة قواعد حكم ديني، فكان على رأس الشعب كاهن أعظم. أما الأمور الدنيوية فقد كان يقوم بها شيوخ القبائل ورؤساء العشائر، إذ ظلت إسرائيل منقسمة إلى أسباطها القديمة. أما السياسة

العليا فتركت لفارس.

٤- الآراميون في سوريا

الآراميون قوم سامدون لا يعرف موطنهم الأصلي، ويبدو أنهم هاجروا من شمال بلاد العرب وأنتشروا في سوريا والعراق وأشور وبابل حتى ما وراء دجلة، وكان هذا حوالي الوقت الذي ظهرت فيه دولة الكلدانيين في بابل، وتكتلت جماعة منهم على حدودها الشرقية والغربية والشمالية خاصة. ثم في القرنين ١١، ١٢ حدثت هجرة جديدة أستقروا بعدها في شمال الشام.

تأثرهم بالحضارتين المصرية والحيثية:- يبدو أن هناك صلة قوية بين الآراميين وبين الأموريين، الذين خضعوا لمصر أيام عزها، والذين تأثروا بفنون مصر قبل ظهور الآراميين، ومن الطريف أنه عثر على كتابة آرامية قديمة تشبه إلى حد كبير الكتابة المصرية، ولقد صارت هذه الحروف أساسًا لكتابات الأمم الحديثة، بعد أن تولى نقلها وتعميمها الآراميون والفينيقيون.

وحضارة الآراميين في بدايتها حضارة متأخرة، وهي تدل على تأثر كبير بفنون الحيثيين والأشوريين، فمبانيهم من الطوب، ومنازلهم طرازها حيثي، وهو الطراز الذي عرف في أشور أيضًا، وكانت فتحاتها قليلة وضيقة. أما نقوشهم فإنها أشبه بنقوش الأشوريين منها بنقوش البابليين، وهي حيثية في روحها.

نشاطهم التجاري: – بعد أن ضاعت أهمية مصر وخيتا وكريت كأمم تجارية، ظهر بدلًا منها شعبي آرام وفينيقيا. ولقد كان إستقرار آرام بحيث تخترقها طرق القوافل الآتية من الغرب، من الهند وبابل وأشور، ومن الجنوب حتى بلاد العرب وإيران فصارت هذه الطرق تحت أيديهم، وبلغ بهم نشاطهم إلى أن صاروا أهم شعب يتجر في آسيا.

التجارة مع أشور: حيث حط الآراميون رحالهم، كان إستقرارهم بحيث سدوا منافذ أشور التجارية، فلم تسلم طرق التجارة الممتدة غربًا وشمالًا ناقلة معادن أشور ومنسوجاتها، وضغطوا على أشور من الغرب، فعاقوا تجارتها إلى الجنوب والشرق. وبهذا صارت تجارة أشور من صادرات وواردات يقوم بها الآراميون. وحين أرتفعت أشور وسادت الشرق، كانت مهمة التجارة داخلية وخارجية في أيدي الآراميين، إذ كان الأشوريون شعبًا محاربًا وينصرف عامته إلى الزراعة. بل وكانوا يحتقرون إمتهان التجارة.

نقلهم الكتابة: – أخذ الآراميون الحروف الهجائية عن الفينيقيين. وكان هؤلاء قد أخذوها عن المصريين. ولقد أنتشر الآراميون في أرجاء الشرق القديم يروجون البضائع وينقلون المتاجر. وسرعان ما وجدت هذه الشعوب أن حروف الآراميين عملية وأكثر نفعًا من كتاباتهم، فأخذت تحل محل كتابة أشور وبابل المسمارية. ومن بلاد ما بين النهرين أنتقلت إلى فارس. التي أستعمل فيها الحظ المسماري في النقوش، والحروف الآرامية في الوثائق. ومن فارس أنتقلت إلى الهند.

إستخدامها في العلاقات التجارية: – الشعوب السامية شعوب تجارية. ومن ثم كان التقدم الملحوظ في الحساب والكتابة أمران لازمان لتسهيل المعاملات التجارية. ولقد بدأت أشور وبابل بإستخدام هذه الكتابة في العقود وما أشبه. وأقتصر الخط المسماري على لوحات الطين على السجلات الرسمية والنقوش، ولقد أنتشرت لغة الآراميين أيضًا بين طبقات العامة أولًا، ثم ما لبثت أن صارت وسيلة نقل الآداب، وفيما بعد كانت هي لغة المسيح. ويبدو أن الحروف العربية أيضًا مأخوذة عن حروف الآراميين.

إستخدام موظفين آراميين في الإمبراطورية الأشورية: – أستعان الأشوريون بالكتبة الآراميين في مكاتبهم، فقد ورد ذكر هذا الأمر في وثائقهم، كما أن بعض نقوشهم تصورهم وقد جلسوا يكتبون على الجلد أو الورق، إلى جانب الكتبة الأشوريين ذوي اللحى، وهم يكتبون على ألواح الطين، وكانت بعض مناصب الكتبة يشغلها نسوة آراميات أيضًا.

٥- الفينيقيون

أصلهم: هم قوم ساميون على ما يبدو، ولقد قص سكان صور على هيرودوت كيف أن أجدادهم أنحدروا إلى شاطئ سوريا من شواطئ الخليج الفارسي، وكان هذا في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد. أما أسم فينقيا فيبدو أن له علاقة بلون بشرتهم الأرجواني، وربما لأنهم تخصصوا في صناعة هذا اللون وصبغ الملابس به. ولقد دعتهم بيئة بلادهم المحصورة والممتدة على شاطئ البحر إلى حياة المغامرة في البحار.

تكوين المدن الفينيقية: كان سكان كل مدينة فينيقية يظنون أن مدينتهم هي أقدم المدن. وكانت أعظمها وأغناها مدينة صور، التي صارت عاصمة فيما بعد. وكانت ببلوس تعتبر العاصمة الدينية، وقد أشتهرت بتجارة البردي خاصة، حتى أن الإغريق أشتقوا أسم الورق من أسم المدينة.

ولقد جاب الفينيقيون البحار وخاصة البحر المتوسط، وعلى شواطئه أتخذوا لهم مراكز تجارية، أقاموا فيها الحاميات، ومن أهمها قبرص وردوس وقرطاجه ومالطة وصقلية وسردينيا وكورسكا ومرسيليا.

وكان يقوم بحكم هذه المدن طبقة التجار الأثرياء. ولقد أزدهرت هذه المدن بفضل التجارة الواسعة الناجحة.

خصائص حضارتهم: شعب فينيقيا شعب تجاري قبل أي شيء، وإذا كان الآراميون قد سيطروا على التجارة البرية، فقد أتجه الفينيقيون إلى ممارسة التجارة البحرية. لذا فقد نبغوا في بناء السفن وتسييرها. ولقد كانوا يتمتعون بثقة أهل الشرق القديم في هذه الناحية، حتى أن إنكار ملك مصر أستخدم بحارة فينيقيين لكشف سواحل إفريقيا. وكانوا عادة يسيرون بمحاذاة السواحل مسترشدين بالنجم القطبي. ولقد حنكتهم التجارة والمغامرات والإتصال بالناس، فكانوا شعبًا عمليًا، يتمتعون بالذكاء والدهاء، حتى لقد أكتشفوا إسبانيا وسخروا أهلها في العمل في مناجمها.

وقد كانت لهم بجانب هذا صناعات برعوا فيها، كالأواني الزجاجية والمعدنية، وكانوا ينقشون أوانيهم ويرسمون عليها، وكذا صناعة الأسلحة والحلى، كما طرزوا الملابس بالألوان الجميلة. أما السفن فقد كانت ضيقة واطئة وتسير بالشراع (شكل ١٧).

علاقتهم بالحضارات: كانت علاقتهم بالأمم المحيطة علاقة تجارية قبل كل شيء كما أخذوا عنها بعض مظاهر حضاراتها، فالكتابة والبردي وصناعة الأواني من مصر، والآلهة من دول الشرق القديم وهكذا.

نقل الحضارات: ولقد كانوا حلقة الإتصال الأولى بين الشرق القديم والغرب وكانوا واسطة نقل الحضارة والمعرفة إلى أوروبا.

وكانت سفنهم تدأب حاملة مصنوعات وغلات الشرق من حبوب ومنسوجات وعطور وحلى إلى بلدان البحر المتوسط، وتعود منها مثقلة بالمعادن الخام والأخشاب النادرة والعبيد. ومع هذه البضائع نقلوا مظاهر الحضارة، فخلاصة حضارة البابليين والمصريين في الطب والفلك والحساب والدين، صارت أساسًا لمدنيات الإغريق والرومان، التي هي أساس المدنيات الحديثة.

علاقتهم بمصر: ترجع هذه العلاقة إلى أقدم العصور المصرية، حتى لقد ورد في قصة أوزيريس أن التابوت الذي وضعه فيه ست حمله إلى شاطئ جبيل، وتذكر نصوص مصرية قديمة كيف جلب سنفرو خشب الأرز من جبيل على أربعين سفينة مصرية. ومنذ الأسرة السادسة نشطت

هذه العلاقة وأستمرت حتى نهاية التاريخ المصري. ولقد وجدت بجبيل قطع من أوان مصرية تحمل أسماء ملوك مصريين من عهد الدولة الوسطى.

ولقد تمت أيضًا علاقات مصاهرة بين ملوك مصر وأميرات فينيقيا، ثم لما أمتدت أملاك مصر، دخلت فينيقيا في نطاق الأمم الخاضعة لمصر، ولقد أثبت لهم التاريخ إخلاصهم لملوك مصر حين أخذت المدن الأخرى تنسلخ عن مصر أيام إخناتون، ثم تحرر شعب فينيقيا حوالي سنة ١٢٠٠ ق. م: ورغم هذا ظلوا على علاقاتهم الطيبة بمصر، حتى لقد كلف الملك تخار بحارة فينيقيين بالطواف حول إفريقيا.

الحروف الأبجدية: وجد الفينيقيون في الكتابة المصرية أكثر الكتابات مناسبة لتسجيل معاملاتهم التجارية، وربما يرجع تنبههم إلى هذه الحقيقة إلى إشتغالهم بتجارة ورق البردي المصري. ولقد أخذها عنهم الآراميون فنشروها شرقًا وجنوبًا في فارس والهند وأشوو وبايل بل وشبه جزيرة العرب أيضًا، وأخذها عنهم بنو إسرائيل وبها كتبوا آثارهم الدينية. ولقد قام الفينيقيون بتعليمها للإغريق كما تؤيد هذا روايات الإغريق أنفسهم. وكانت الكتابة المصرية تكتب غالبًا من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين أحيانًا. ومن الطريف أن أقدم كتابات الإغريق أتخذت نفس الإتجاهين. وعن الإغريق أخذ الرومان حروفهم المستعملة في كتابة لغات أوروبا في الوقت الحاضر.

ثالثًا - الحضارة الفارسية

العنصر الآري:

حتى هذه الفترة كان تاريخ شعوب الشرق هو تاريخ المصريين والساميين، وبظهور الفرس والميديين أحتل الجنس الشمالي الهند وأوربي المكانة الأولى.

وكانت القبائل الآرية تعيش في أستبس روسيا والتركستان الحالية. ولأسباب لا نعرفها أندفعت حوالي ٢٠٠٠ ق. م من الدانوب لبحر آرال وأستولت على آسيا الصغرى وإيران والبلقان. والآريون ضخام الجسم أقوياء بيض البشرة ويطلقون شعورهم وذقونهم، يحيون حياة رعوية مثل السامين، مسلحين بأسلحة من الحديد وهو معدن غير مألوف للشرقيين أنئذ. وجاءوا معهم بالحصان الذي يجر العربات، مما أعطاهم بالإضافة لكثرة أعدادهم تفوقًا عظيمًا في الحرب. فأنتصروا على الشعوب المتمدنة التي أفسدها الترف.

هجراتهم: وأتجهت جحافل الغزاة الآريين إلى نهر السند، هضبة إيران. وسيطر الأولون على شبه جزيرة الهند، وهم الهندوس ويتكلمون السنسكريتية وسيطر الأخرون على إيران، وهم الميديون فيما وراء نهر دجلة، شمال غرب إيران، والفرس على طول عيلام والخليج الفارسي ويتكلمون لغة الزند التي تنتمي للسنسكريتية وسائر اللغات الهند وأوربية (الإنجليزية والألمانية والفرنسية واللاتينية واليونانية).

وهكذا أستقر جنس من الأجناس من أوربا حتى الهند، ومن هنا جاءت تسميته بالهند وأوربي، ويربط أفراد هذا الجنس روابط عامة أهمها اللغة التي أنقسمت فيما بعد إلى لهجات مختلفة.

الميديون وتكوين مملكتهم: في نهاية القرن السابع كون الميديون دولة وأسس ملكهم ديوسيس العامة أكباتانا ٧٠٨ ق. م. ومعناها (ملتقى الطرق الكثيرة). وقد صمد الميديون أمام جيش الأشوريين المرعب مدة طويلة، حتى أستطاع سبا كزارس أعظم ملوك الميديين أن ينظم جيشًا على النمط الأشوري، وتمكن من تدمير نينوي ٦٠٦ ق. م وبسط نفوذه على شرق دجله وأرمينيه ووصل حتى آسيا الصغرى ودعم فتوحاته بالمصاهرة.

إنتصار فارس عليهم: تبدلت حياة الميديين الخشنة الحربية إلى الترف والتخنث ففقدوا روحهم الحربية، بينما ظل إخوانهم الفرس محافظين على طباعهم الحميدة، فيذكر عنهم هيرودون أن الفارسي حتى سن العشرين كان لا يلقن إلا ركوب الخيل وتصويب السهام وقول الصدق. وفي حوالي ٥٤٩ ق. م ثار الفرس بزعامه كورش على طاغية ميديا وأنتصروا عليه وبذلك أنقلبت الآية وأصبحت فارس سيدة ميديا، وفيما بعد سنراها سيدة الشرق كله.

كورش: وصفه كتاب اليونان بأنه من أكبر أبطال العالم مثل الأسكندر، ونسب له هيرودوت قصصًا خرافيه كثيرة.

إيران، والفرس على طول عيلام والخليج الفارسي ويتكلمون لغة الزند التي تنتمي للسنسكريتية وسائر اللغات الهند وأوربية (الأنجليزية والألمانية والفرنسية واللاتينية واليونانية).

وهكذا إستقر جنس من الأجناس من أوربا حتى الهند، ومن هنا جاءت تسميته بالهند وأورب، ويربط أفراد هذا الجنس روابط عامة أهمها اللغة التي إنقسمت فيما بعد إلى لهجات مختلفة.

الميديون وتكوين مملكتهم:

في نهاية القرن السابع كون الميديون دولة وأسس ملكهم ديوسيس العامة اكباتانا ٧٠٨ ق.م. ومعناها (ملتقى الطرق الكثيرة). وقد صمد الميديون أمام جيش الآشوريين المرعب مدة

طويلة، حتى إستطاع سبا كزارس أعظم ملوك الميديين أن ينظم جيشاً على النمط الأشوري، وتمكن من تدمير نينوي ١٠٦ ق.م وبسط نفوذه على شرق دجله وأرمينيه ووصل حتى آسيا الصغرى ودعم فتوحاته بالمصاهرة.

إنتصار فارس عليهم:

تبدلت حياة الميدان الخشنة الحربية إلى الترف والتخنث فقدوا روحهم الحربية، بينما ظل إخوانهم الفرس محافظين على طباعهم

الحميدة، فيذكر عنهم هيرودون أن الفارسي حتى سن العشرين كان لا يلقن إلا ركوب الخيل وتصويب السهام وقول الصدق. وفي حوالي ٥٤٩ ق.م ثار الفرس بزعامه كورش على طاغية ميديا وانتصروا عليه وبذلك إنقلبت الآية وأصبحت فارس سيدة ميديا، وفيما بعد سنراها سيدة الشرق كله.

كورش: وصفه كتاب اليونان بأنه من أكبر أبطال العالم مثل الأسكندر، ونسب له هيرودوت قصصاً خرافية كثيرة.

حروبه وتكوين الإمبرطورية الفارسية : ٥٤٩ – ٥٢٩ ق.م.

وفي سنة ٥١٢ ق.م إتصل دارا الأول بالآريين في الهند، الذين إنفصلوا عن الإيرانيين منذ ١٠ قرناً. وأرسل أحد اليونانيين فإكتشف نهر السيد حتى المحط الهندي وتابع سيره حول الخليج الفارسي وجنوب بلاد العرب ويضيف هيرودوت آن دارا أخضع بول الرحلة الهندوس، فأضاف مستعمرة جديدة للإمبراطورية الفارسية، ووصلت منتجات الهند من التوابل والأحجار الكريمة والحرير الأول مرة بالسفن الشراعية السريعة بدلًا من الجمال البطيئة لمواني فينيقيه وقرطاجة واليونان، وأعاد حفر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر. وقادته فتوحه عبر البسفور إلى اليونان بعد أن أدرك أن إزدياد قوة وتوسع دويلات المدن اليونانية فيه خطر هدد الفرس في غرب آسيا. وعاد دارا حزيناً بعد هزيمته في سل ماراثرن في بلاد اليونان وأخذ يستعد لحملة أخرى لكنه مرض ومات.

حضارة الفرس: تأثرها حضارة البلاد التي فتحوها:

بلغت إمبراطورية فارس انتساءاً عظيماًلم يعرفه التاريخ قبل دارا الأول، فشملت ٢٠ إمارة منها مصر وفلسطين وسوريا وفينيقيا وبابل وميديا وفارس والجزء الممتد من غرب السند جت وسط آسيا، وقدر عدد سكانها بأربعين مليوناً.

وقبل إستقرار الأريين الأوائل في إيران وغرب الهند كانت حضارتهم رعوية جبلية حربية بسيطة، وسرعان ما أخذوا من حضارات الشعوب التي حكموها، والتي قطعت شوطاً كبيراً في ميدان الحضارة، الزراعة والصناعة والكتابة والتجارة والبناء والفن، ويمكننا أن نقول أن عناصر الحضارة الفارسية كلها مستمدة من الخارج، والطابع الذي يميزها هو الجمع بين هذه العناصر والملاءمة بينها.

والفرس كغيرهم من سكان الجبال أقوياء البنية، يعتبرون من سوء الأدب كشف أي جزء من الجسم خلاف الوجه. لباسهم سراول وقص من التيل وعصابة للرأس وأحذية للقدمين، ولا تختلف ملابس الرجال عن النساء إلا بفتحة عند الصدر، والرجال يتركون لحاهم، وشعر رأسهم في ضفائر ويكثرون من الزينة والعطور.

الكتابة الآرامية والمسمارية:

تكلمنا فيما سبق عن اللغات الهند وأوربيه: ولما مارس الفرس الكتابة إستخدموا في نقوشهم الخط المساري، والحروف الهجائية

الآرامية لكتابة وثائقهم، وبسطوا مقاطع اللغة البابلية من ٣٠٠ رمز إلى ٣٦ علامة تطورت من مقاطع لحروف حتى صارت حروف هجائية مسمارية، ولم يخلف الفرس أدبه لإعتقادهم أن الكتابة ليوا خليقة بالنساء وقضوا وقتهم في الحرب والصيد والحمر.

الملك الفارسي ويلقب بالمحارب، ودولك الملوك، كانت عاصمته بزارجاده أو العاصمة الصيفية اكباتانا. وفي ألقاب الملك ما يدل على طابع الملكية الفارسية العسكري وسلطان ملكهم المطلق على حياة رعاياه، وكان له أن يختار من يخلفه ولكن المؤامرات والإغتيالات هي التي كانت تقرر تثبيته أو خلعه. ويساعد الأعيان الملك في جباية الضرائب والقضاء والحرب مقابل منحهم مقاطعاتهم، وكانت إرادة الملك هي القانون بإعتبارها إرادة الإله أهورا – مازدا. وكانوا يلجأون أحياناً للحكم الإلهي، وكانت الأحكام هيجية كالإعدام بالصلب أو الرجم بالحجارة أو تمشيم الرأس وهناك التشويه وبتر الأطراف والجلد.

حكومة الولايات وكانت الأمبراطورية مقسمة إلى ستر بيات (ولايات) على كل منها سترب (وال) وبجانب الوالي قائد وأمين كل مستقل عن الأخر، مهمته مراقبة الآخرين ويراقب الكل فرقة للمخابرات السرية (عيون الملاه وآذانه، ويتناول الموظفون رواتبهم من الولايات التي يحكمونها.

الجيش: كان التجنيد إجبارياً من سن ١٥ إلى ٥٠ سنة، وقد أراد والد ثلاثة إعفاء أحدهم من الخدمة العسكرية فأمر الملك بقتل ثلاثتهم.

بجند من كل الأمر الخاضعة للفرس، لكل فرقتها التي تحتفظ وكان الجيش بطابعها ولغتها وسلاحها. لذلك كانت تنقص لجيش الفارسي الوحدة. وكان إنتصار الفرس نتيجة لكثرتهم العددية، ولكن جيوش الأغريق المنظمة الوحدة هزمتهم، ومن أسلحة الجيش القمي والسهام والسيوف والحراب والخناجر والمقاليع والتروس والخوذ ويركبون الجياد والعربات والفيلة.

الأسطول: لم يكن للفرس أسطول خاص بهم بل كانوا يستولون على عفن الفينيقيين للأغراض الحربية، وإمتاز النقل البري بتقدم عظيم.

الطرق: لأغراض حربية وحكومية أهتم الفرس إنشاء الطرق وخاصة في عهد دارا الأول وقد بلغ طول بعضها أكثر من ١٠٠٠ ميل كالطريق من العاصمة لمصر، وقد ذكر هيرودوث أنه كان يقام عند نهايه كل مرحلة حوالي ١٣ ميلاً) إستراحات ملكية وفنادق ضخمه ونوجل خيول بديلة لتواصل السفر. وكان البريد الملكي بجتاز هذه المسافة الطويلة في أسبوع. وقد برع المهندسون الفارسيون في إقامة القناطر عبر الفرات بل الدردنيل مثل الذي أقيم لعبور الجيوش والفيلة عندما شرع الفرم في غزو اليونان.

الديانة: إعتقد الفرس الأوائل قبل زردشت في آلة من الحيوانات كما عبدوا الشمس والأرض.

مذهب زردشت: أعتقد الفرس فيما بعد في ني اسمه زردشت حملت

به أمه حملًا إلهياً، وعاش عيشة العزلة والصلاح في البرية، ولم يفلح الشيطان في أغوائه فتجلى له الإله الأعظ أهورا مازدا (زب النور) ووضع في يديه الأبتساق أي كتاب العلم والحكمة، وأمره بأن يعظ الناس بما جاء فيه. وعاش زردشت زمناً طويلًا حتى صعد إلى السماء بعد أن أحرقه وميض من البرق. وقد ثار زردشت على كهنة المجوس وأعلن أنه لا يوجد سوى إله واحد هو أهورا مازدا. وقد إعتنق دارا الأول هذا الدين وجعله الديانة الرسمية وحارب الديانات الأخرى.

ويلاحظ أن ديانة زردشت أشبه بعقيدة قائمة على التوحيد، كما أن بها صراع بين الخير والشر ممثل في الصراع بين أهرامازدا والشيطان الذي لا ينقطع عن إغواء الناس بقمل الشر، كما جاء ما أن وراء الموت جنة الأرواح الطيبة أو جحا للذهنية، ولم تسمح بإقامة الهياكل والأصنام بل بإنشاء المذابح حيث ترقد النار تكريماً لأهررا مازدا.

الفنون: عناصر الفن الفارسي كاما مستعارة من الخارج لإنشغال الفرس في الحروب:

وقد جمدت العمارة الفارسية بين طراز الأعمدة الأشورية وأمام الأعمدة المصرية وتيجان الأعمدة التي على شكل الحيوان من نينوي وبابل ولارمت بينها في ذوق سليم.

ومن أشهر المباني الفارسية القصور الملكية التي مازالت بقاياها مقامه على ربوة عالية تؤدي إليها من السهل درجات عظيمة سهلة

المرتقى. وعلى المدخل نصبت تماثيل ثير أن مجندة ذات رءوس بشرية مأخوذة عن الفن الأشوري.

ومقبرة دار الأول الصخرية، مدخلها عبارة عن أربعة أعمدة يتوسطها باب مثلت فرق، الشعوب الخاضعة للفرس تحمل رسم الملك عبد أهورامازدا. وقد أولع الفرس بالموسيقى والغناء والمنير. وكانت بيوت الأثرياء ذات حدائق غناء وأثاث غم، وكان عرش الماء من الذهب الخالص. وقد تزين الرجال والنساء على السواء بالأحجار الكريمة اللواو والياقوت والزمرد.

أثر النزاع بين الفرش والاغريق في نقل الحضارة الشرقية للغرب:

بدنا فيما سبق أن حضارة الفرس كانت خلاصة جمعت ولا ممت بين جمارات أمم الشرق المتداعية مثل مصر وبابل وأشور. وعندما نشبت الحروب الطاحنة بين نارس والإغريق، التي بدأت بعبور الفرس إلى موطن الإغريق في أوربا والتي انتهت بهزيمة الفرس على يد الإسكندر في آسيا، كانت هذه الحروب وسيلة لملامسة الإغريق عن قرب لحضارة الشرق.

رابعاً - تقدير حضارة الشرق إنتقال هذه الحضارة للغربة

تبلت الحضارات الأولى وترعرعت في ربوع الشرق القديم ومصر، ثم حمل شعلة الحضارة الإغريق ومن بعدهم الرومان. ولقد كانت العلاقة بين الحضارتين بحيث يمكن تتبع أصول حضارة الغرب في حضارات الأمم القديمة، فمن المصريين أخذوا الكتابة بعد أن حوروها، كما شاعت

شهرة الورق المصري في ربوع العالم المعروف آنئذ. وعن البابليين والمصريين إقتبسوا الفلك والقويم، الذي يحدد أقسام السنة أو الشهر واليوم والساعة، وعن الحضارات القديمة إنتقلت طرق الحكو علوم الطب والصيدلة والحساب والهندسة، وعرف إستعمال المركبات والخيول والنقود وفنون التجارة والصناعة والمهارة والموستي وآلاتها، علاوة على بعض أدوات التسلية والساعة المائية والرملية. هذا وقد إنتقلت إليهم مفردات كثيرة من اللغات القديمة تزخر بها اللغات الحديثة. ولقد أخذت الأساطير الدينية والقصص الشعبية وآداب الشرقيين عامة طريقها إلى أديان اليونان والروان وداهم، وكانت أحداث الشرق البعيد مواضيع زاخرة لكتاب الإغريق بل أن العبرانين ورثوا العالم كله عقيدة التوحيله ومن بعدها المسيحية.

وسائل إنتقال الحضارة:

هجرت الشعوب التي يزخر بها تاريخ أمم الشرق القديم، وقد كانت تأتي معها بعناصر حضارة، وتنقل في ترحالها عناصر حضارات الأمم الأخرى.

١- التجارة : وقد كانت أغلب أمم الشرق القديمة أما تجارية قبل أي شيء تجوب قوافلها وأساطيلها القفار والبحار حاملة منتجات أمم إلى الأمم الأخرى.

ولقد إشتهر بالتجارة ونقل الحضارة الفينيقيون والأراميون خاصة بين

شعوب الشرق القديم.

٢- الحروب: وقد كانت عاملًا مهماً في هذا السبيل، وكثيراً ما كان الملك المنتصر يعود ومعه صناع وبنائي وفناني الأمم المغلوبة فضلًا عن تحفها.

٣- الكتاب القدماء الذين زاروا الشرق وأعجبوا بما شاهدوه، وكانوا ينقلون معارف وأخبار الأمم القديمة إلى بلادهم.

عوامل سقوط هذه الحضارات:

١ - الحروب التي لم تفتأ تنشب بين هذه الدول بقصد التوسع السياسي، فلقد إختفت دول الميتاني وخيثا وأشور وبابل واليهود والفرس عقب حروب حاسمة.

٢- هجمات الشعوب الجبلية التي لم تنقطع هجراتها واغاراتها على مواطن هذه الحضارات، وخاصة هجمات الآريين التي عطلت نمو الحضارة زمناً، وكذا الشعوب المتاخمة لأشور والتي كانت أحد عوامل سقوطها.

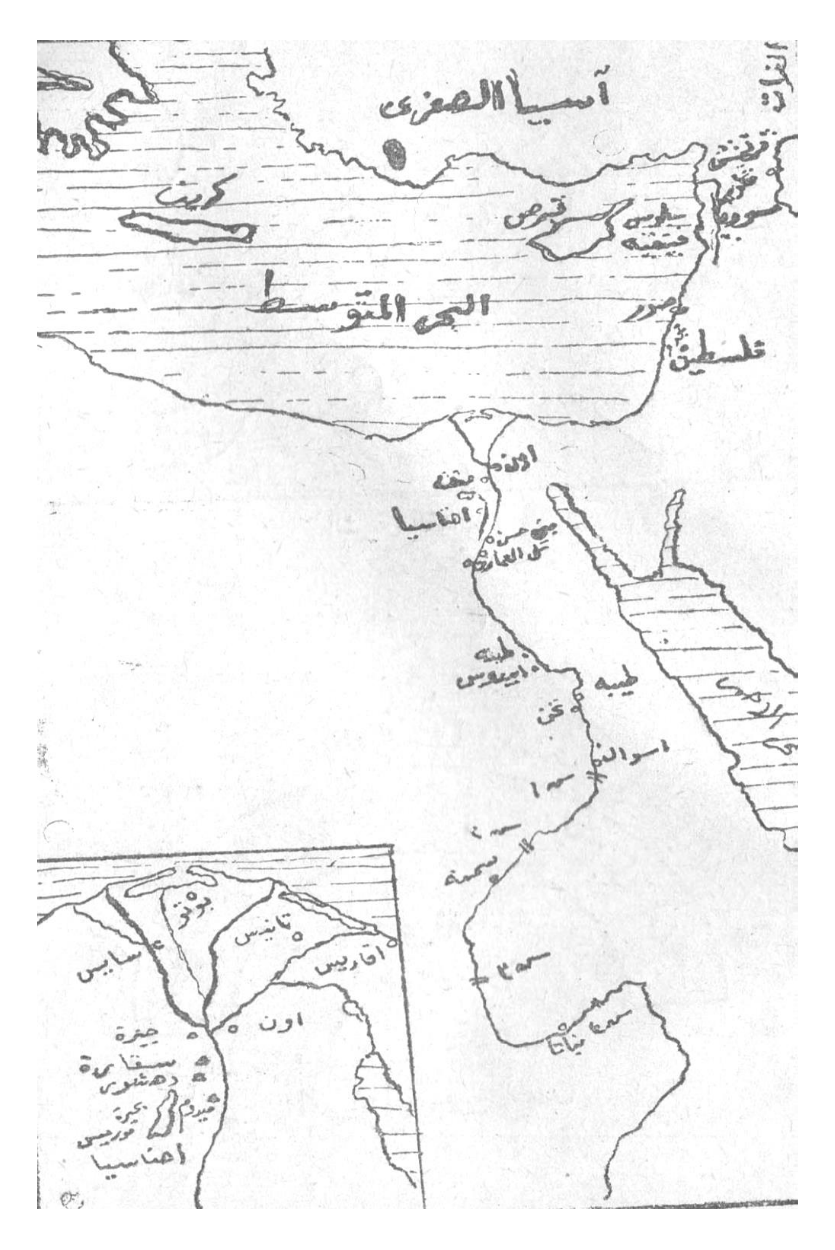
٣ - ولقد إختلطت الشعوب القديمة بعضها جنسياً، كما اندس فيها عناصر هيجية، أضعفت صفات الأجيال القوية الجسمية والخلقية والحضارية، كما حدث في مصر حين توالى عليها الليبيون والتوبيون والفرس والإغريق، فإضمحل الطابع المصري القديم. ولاقت أشور

نفس المصير بعد أن إختلط بشعبها سكان الجبال وأهالي المدن التي نقلوها إلى آشور.

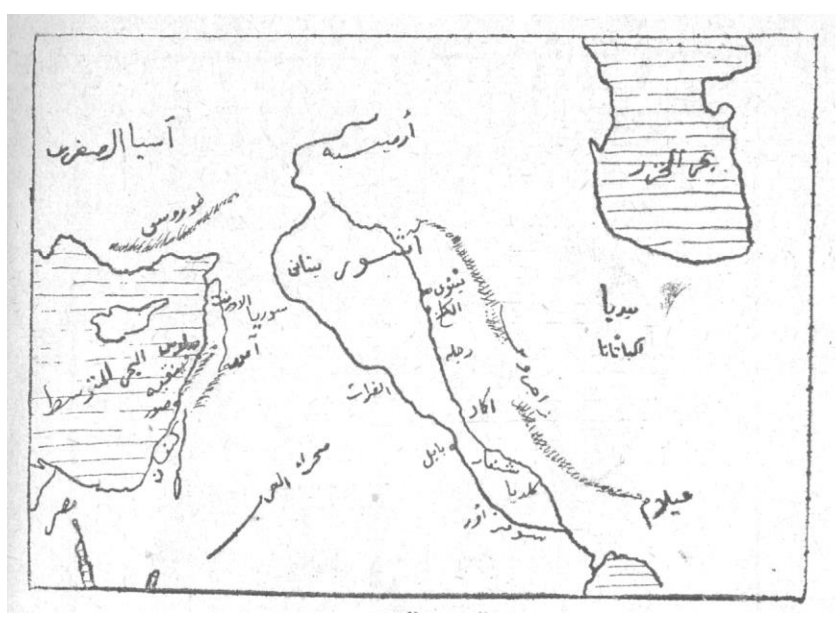
٤- وقد كانت الشعوب الشرقية القديمة شعوباً محافظة على القدم، فلم تكن لها قابلية للتطور السريع، ولذا شاخت مع مضي الزمن.

٥ - وهناك عامل مهم تمثل في إعتبار الدين والدولة وحدة لا تتجزأ، وكانت الأديان تفسد في النهاية وتجر معها الأمم للزوال وحضارتها إلى فناء.

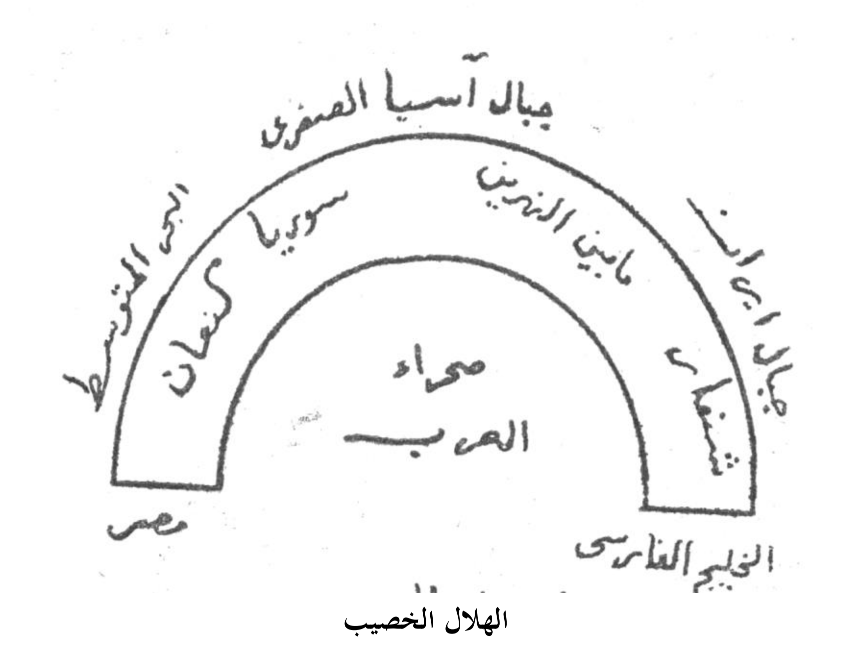
ملحق الصور



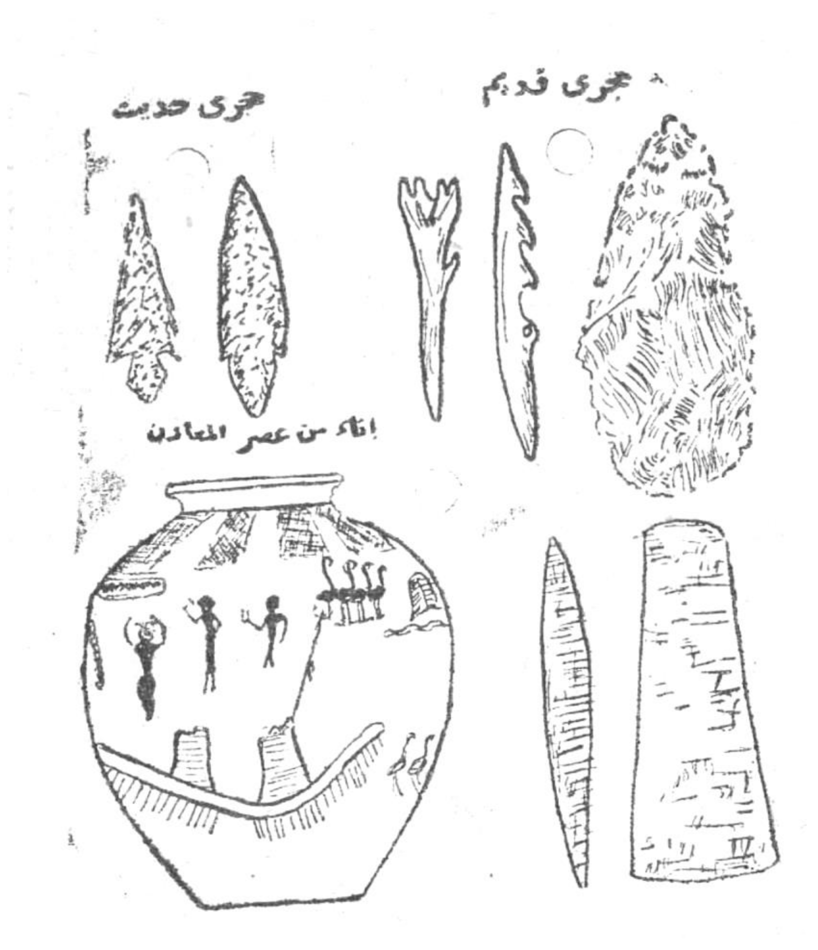
مصر والنوبة



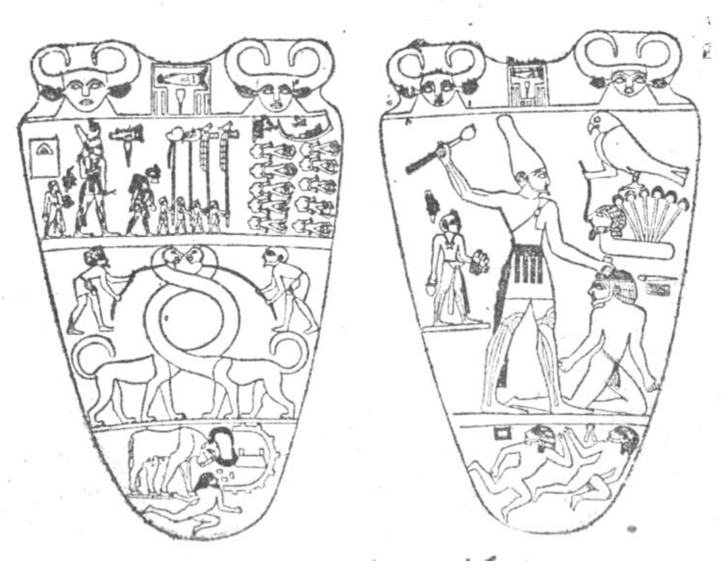
الشرق القديم



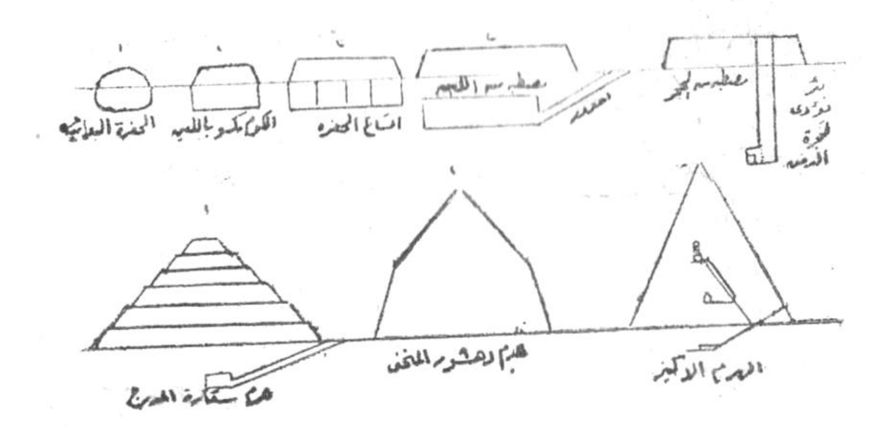
الهلال الخصيب



(شكل١) آثار عصر ما قبل التاريخ



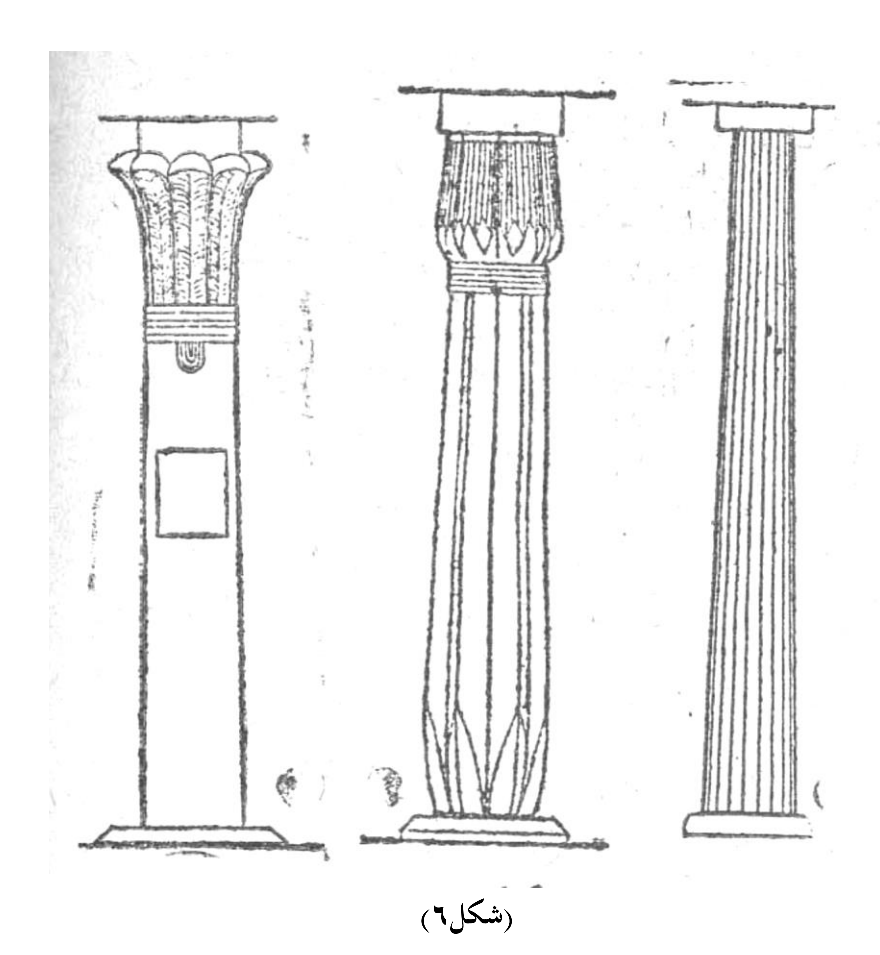
(شكل٢) لوحة توحيد الشمال والجنوب في عهد مينا



(شكل٣) تطور مقابر الدولة القديمة



(شكل٥) تمثال خفرع أسرة ٤

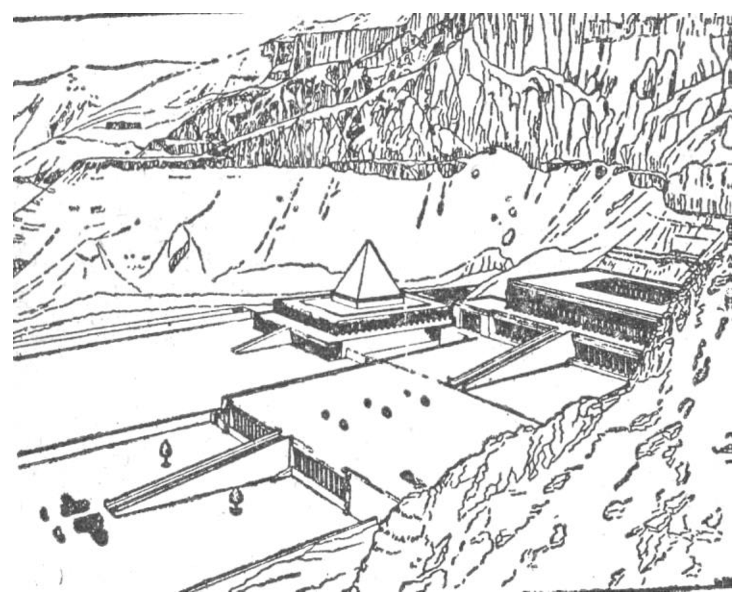


(شكل٦)

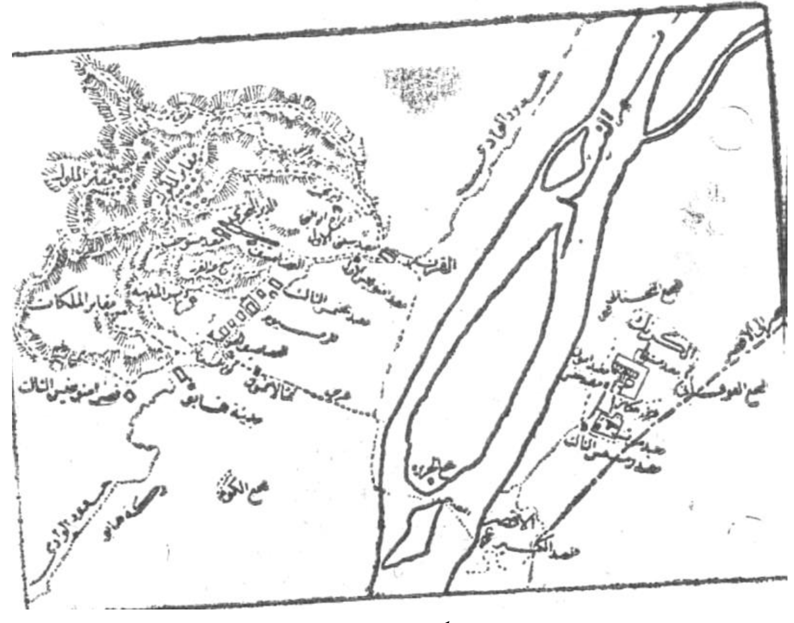
١- أسطون من منطقة زوسر

٢- أسطون حزمة البردي أسرة ٥

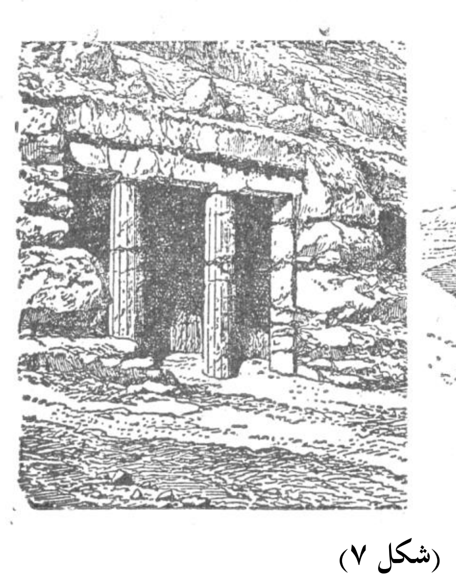
٣- أسطون النخيل أسرة ٥



(شكل٧) معبدي منتحتب وحتشبسوت – الدير البحري



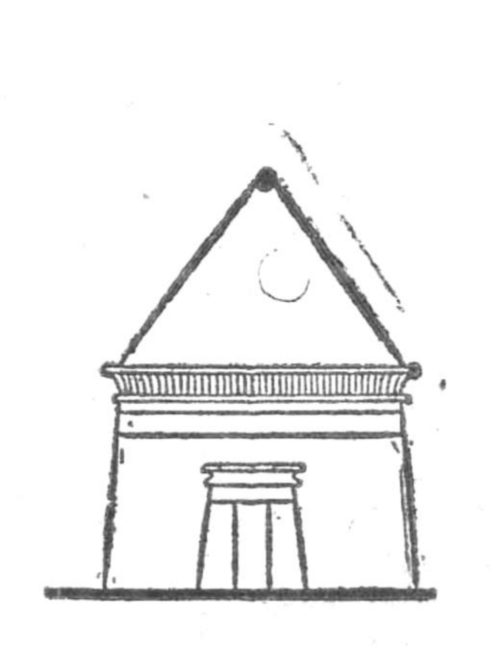
(شكل ٨) طيبة

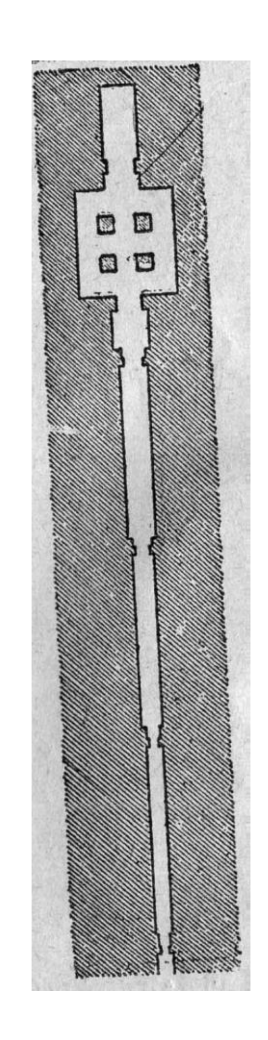




(شكل ٧)

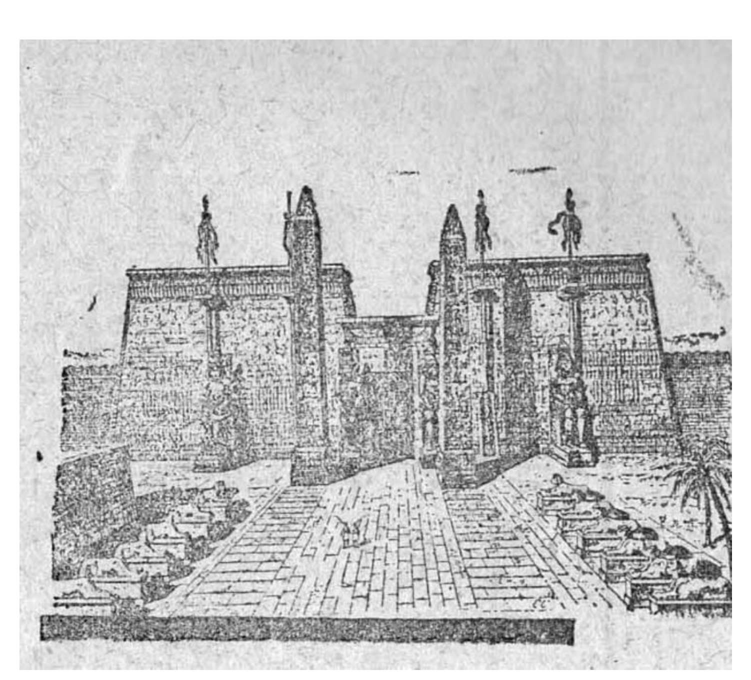
مقبرة من أبيدوس — مدخل مقبرة من بني حسن





(شكل٩)

مقبرة ملكية أسرة ١٩ واجهة مقبرة شريف



(شكل ١٠) واجهة معبد الأقصر



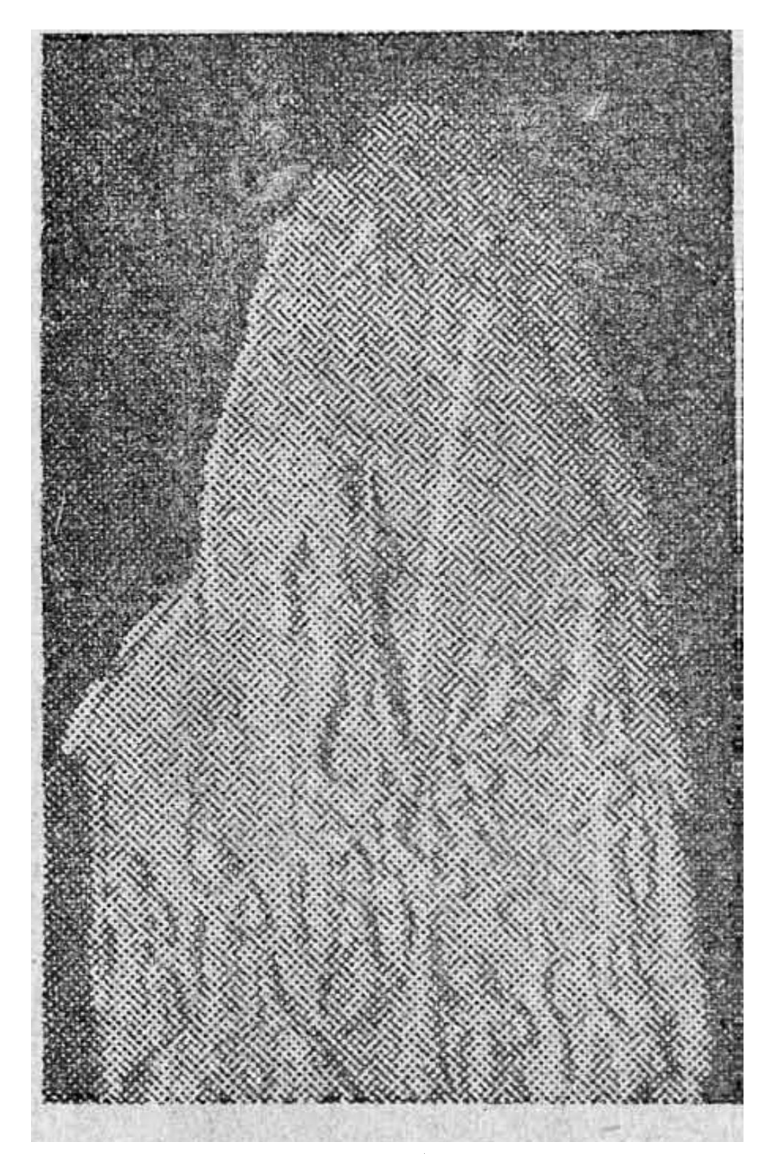
(شكل ١١) موسيقيات من من مقبرة نخت



(شكل ١٢) تمثال إخناتون



(شكل ١٣) رأس تمثال الملك جوديا

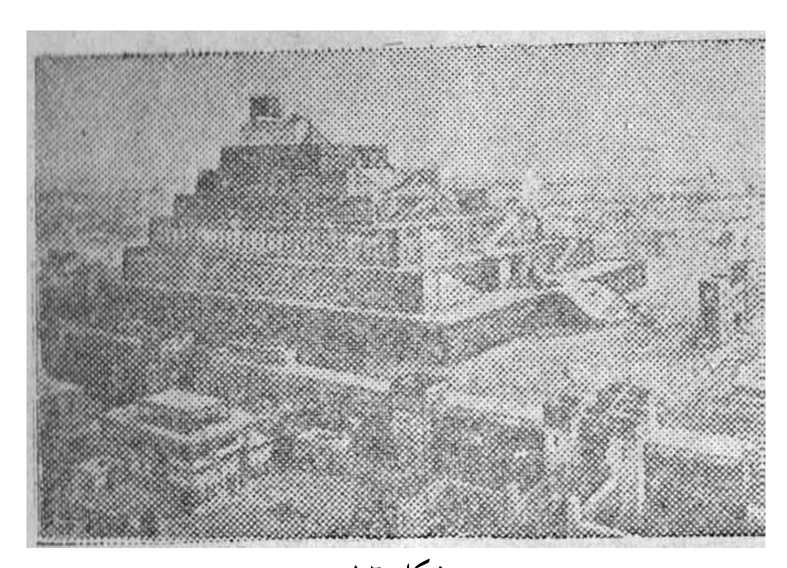


(شكل ١٤)
نقش لنارام سن



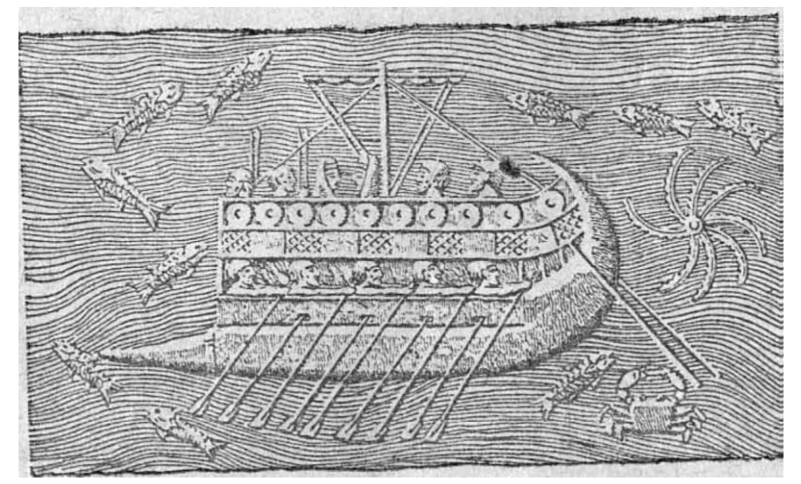
(شكل ١٥)

حمورابي يتسلم القوانين

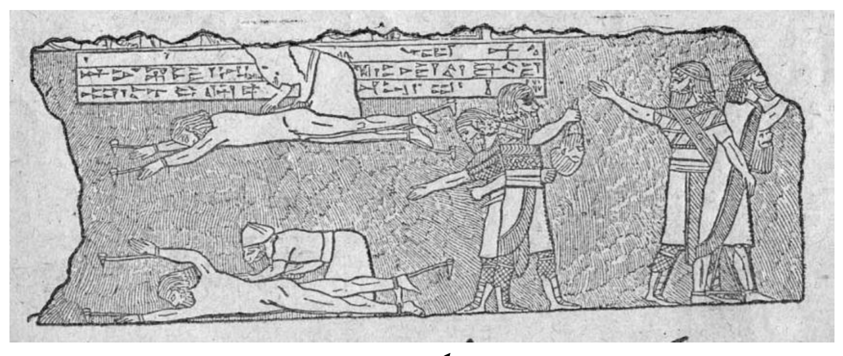


(شكل ١٦)

معبد وبرج الزاجورات



(شكل ١٧) سفينة فينيقية



(شكل١٨)

جنود آشور يسلخون الأسري أحياء

الفهرس